SHAMS PUBLISHING

محمد إبراهيم محمد عمر همد محمود

أضواء النفق الجنوبي

يوميات فلسطينية من قطاع غزة

أضواء النفق الجنوبي

جاء دور نبيل في العبور، وكان من سوء حظه أن يكون تفتيشه على يد ناعوم، ويده الناعمة الطرية تتفحص ظهره وتحت إبطيه، ثم يطالبه برفع قميصه، على الرغم من أنَّ نبيل يتعرَّض لهذه الإجراءات بشكل يوميٍّ، حتى غدت جزءً روتينيَّاً من طبيعة عمله، لذلك لم يكن يحفل بها في ما مضى، ولكنه الآن يجد صعوبة في تقبُّل هذه الإجراءات، ويرفضها أكثر لأنَّها على يد هذه الجندي ناعوم، لكم كان نبيل يعتقد أنَّه قد خلع (دماية) الكرامة منذ استخراجه أوَّل بطاقة ممغنطة تسمح له بعبور هذا المعبر، ويبدو أنَّه لم يكن على صواب، فها هو يحسُّ بالدم يقلي في عروقه، وملمس هذه اليد الناعمة وما لها من زحف حيَّة رقطاء يقشعرُّ منها بدنه، وعلى الرغم من أنَّ يدي نوعام كانتا تعبثان في جسد نبيل في مواضع بعيدة كلّ البعد عن جهازه التنفسي، إلَّا أنَّه أحسَّ بضيق في التنفس، وكأنَّ هذا النوعام يضع أصبعيه على فتحتي أنفه، بينما يحشر يده الأخرى في فيه، وبكلِّ ما يملك من قوة ورغبة في الحياة أهوى بلكمة ساحقه على وجه نوعام، لكمة أودعها كلَّ غضبه وضيقه وأسفه على كل شيكل دفعه نظير الحصول على هذه البطاقة الممغنطة التي جلبت عليه كلَّ هذا الذل والهوان. تغضَّن وجه نوعام من وقع اللكمة والدهشة فبدا كقطعة أسفنجيَّة مبلَّلة بالماء، وإذا بالدم يجرى من منخريه وفيه وسط دهشته وذهول زملائه، بينما ألقى نبيل بجسده عليه ليسقطا على الأرض معاً...

ماجستير اللغة العربية وآدابها. .له العديد من المؤلفات مثل
* صراع الديكة (مجموعة قصصية قصيرة).
* العامل النحوي بين التقعيد والتعقيد.
* الخطاب والسرد في رواية عرس الزين.
* الوشائج اللغوية بين العربية والتَّكْرَايتْ.
* أركان الجملة في اللغة العربية.
* الأدب التفاعلي بين مؤيديه ومعارضيه

9786203913354

FOR AUTHOR USE ONLY

Imprint
Any brand names and product names mentioned in this book are subject to trademark, brand or patent protection and are trademarks or registered trademarks of their respective holders. The use of brand names, product names, common names, trade names, product descriptions etc. even without a particular marking in this work is in no way to be construed to mean that such names may be regarded as unrestricted in respect of trademark and brand protection legislation and could thus be used by anyone.

Cover image: www.ingimage.com

Publisher:
Shams Publishing
is a trademark of
Dodo Books Indian Ocean Ltd. and OmniScriptum S.R.L publishing group

120 High Road, East Finchley, London, N2 9ED, United Kingdom
Str. Armeneasca 28/1, office 1, Chisinau MD-2012, Republic of Moldova, Europe
Printed at: see last page
ISBN: 978-620-3-91335-4

Copyright © محمد إبراهيم محمد عمر همد محمود
Copyright © 2024 Dodo Books Indian Ocean Ltd. and OmniScriptum S.R.L publishing group

FOR AUTHOR USE ONLY

محمد إبراهيم محمد عمر همد محمود

أضواء النفق الجنوبي

يوميات فلسطينية من قطاع غزة

FOR AUTHOR USE ONLY

Shams Publishing

FOR AUTHOR USE ONLY

محمد إبراهيم محمد عمر همد محمود

أضواء النفق الجنوبي

FOR AUTHOR USE ONLY

أضواء النفق الجنوبي

محمد إبراهيم محمد عمر همد محمود

FOR AUTHOR USE ONLY

الزيارة

حزَّمت سعاد أمتعتها وهي تهيئ نفسها للسفر إلى سجن ريمون، وهذه أوَّل زيارة له منها منذ أن سجن زوجها نبيل الدبَّاغ قبل ستة أشهر، لم تألُ فيها جهداً من محاولة زيارته فيها، إلَّا أنَّ جهودها وجهود أقربائها لم تكن مثمرة إزاء تعنُّت حكومة الاحتلال في إصدار تصريح الزيارة لها، حتى أتى يوم الاثنين الماضي وقد جاءها أبو مرزوق زوج خالتها بالبشرى، وقد استطاع بما له من نفوذ وعلاقات داخليَّة وخارجيَّة من استخراج هذا الإذن، ولم تصدِّق سعاد عينيها وقد خطفته من يده وهي تكاد تطير فرحاً، لا تدري كم ستكون فرحتها لو كان هذا صكّ الإفراج عنه؟ وفي غمرة الفرح المباغت نست أن تشكر أبا مرزوق على هذا المعروف، ولم يكن هو في انتظار شيء من ذلك، وقد فرح لفرحتها، وتمنى من أعماق قلبه أن يفرِّج الله كربة هذه البائسة الضعيفة.

انطلقت الحافلة صوب معبر حانون وهي محمَّلة بأُسَر الأسرى، وقد بدا الأمر كرحلة مدرسيَّة في نهاية العام الدراسي، وذلك لاكتظاظ الحافلة بالأطفال، وكلُّ طفل منهم على موعد مع رؤية أبيه أو عمه أو خاله أو أخيه، وقد جلست سعاد على مقعدها في منتصف الحافلة، وبدت شاردة الذهن بعيدة عن جو المرح السائد في الحافلة.

عادت سعاد بذاكرتها إلى الوراء، إلى يوم زفافها إلى نبيل الدباغ، فها هي تنزل من اللوج بمساعدة أبيها، وقد التفَّت كل نساء الحي حولها، والفتيان يحيطون بالمكان، وقد بدت قلقة متوترة، يخالجها مزيج من الشعور بالارتياح وعدمه، فتتعثر خطواتها وأصوات الحناجر حولها ترتفع بالأغاني حيناً وتنخفض بها حيناً آخر، وهاهم يردِّدون بأصواتهم الشجيَّة يحثونها على النزول:

تع اطلعي تع اطلعي من حالك

وإحنا حطينا حقوق أبوكي وخالك

تع اطلعي تع اطلعي من يمك

وإحنا حطينا حقوق أبوكي وعمك

فيزيدها هذا اضطراباً أكثر مما هي مضطربة، فتسحب الأرض من تحت قدميها، وتوشك على السقوط لولا استنادها على كتف أبيها جيداً.

FOR AUTHOR USE ONLY

ينتشلها من هذه الذكريات صوت انفجار إطار الحافلة وما صحبه من صراخ للأطفال، انفجر إطار الحافلة ليزيد معاناتها، يبدو أنَّ هؤلاء السائقين لا يتهمون بإصلاح حافلاتهم اهتمامهم بانتزاع النقود من إنسان عين المسافر.

وأخيراً وصلت الحافلة إلى معبر بيت حانون، واتسمت إجراءات الدخول بالسهولة على الجانب الفلسطيني، ولم يكد يصلوا إلى الجانب الآخر من المعبر حتى بدأت رحلة المعاناة والإذلال، وقد أوقفوا قرابة الساعة وهم يدقِّقون في تصاريحهم وأوراقهم الرسميَّة الأخرى، وقضوا فترة أخرى مماثلة قيد التفتيش، تفتيشهم وما يحملون من أمتعة، ثم سُمِحَ لهم بالعبور وضحكات الجنود وتعليقاتهم الساخرة تلاحقهم، ومندوب الصليب الأحمر يقلِّهم إلى سجن ريمون، ومن بين هؤلاء الجنود الساخرين بحثت سعاد عن جندي يدعى نوعام، وهو جندي اشتهر بمضايقة العمال الفلسطينيين وتعمُّد إذلالهم حتى تمكَّن زوجها من ضربه ضرباً مبرحاً، وكان سبباً في دخوله سجن ريمون، ويبدو أنَّ نوعام قد نُقِلَ من المعبر بعد تلك الحادثة.

ففي ذلك اليوم كانت الضائقة المالية التي يمرُّ بها نبيل على أوجها، ويزيد وحم زوجته وطلباتها الغريبة حياته تعقيداً على ما فيها من نكد وتعقيد، لم يكن سيء الخلق من قبل، ولكنه لم يعد يطيق نفسه والمحيطين به بعد، لذلك كان الضيق واضحاً عليه وهو مصطفٌّ في الحلبات على المعبر، وضيق هذه الحلبات وما فيها من زحام يزيد صدرهً ضيقاً وحنقاً، يبدو أنَّهم يتعمدون إذلالهم ومضايقتهم إذ يجعلونهم يتزاحمون على أربع حلبات بينما المعبر يحتوي على أربعٍ وعشرين منها، والصف يزحف ببطء والجنود يتصرفون معهم بلامبالاة واضحة، ومن بين أولئك الجنود كان نوعام أكثرهم وقاحة وسفاهة وجرأة على إلحاق الأذى بالعمال، والعمال يتحاشون الاشتباك معه خشية أن يتسبَّب في تأخيرهم أو يمنعهم من العبور نهائياً، وزاده ذلك التحاشي سفاهة وجرأة على التعدِّي عليهم، فيزيدهم هذا غلواً واضحاً في الحذر منه، والحرص على تفادي الوقوف أمامه، حتى صار نوعام هاجساً يؤرِّق حياتهم وينقص مضاجعهم، فلو أنَّ عاملاً انتفض مذعوراً من نومه فاعلم أنَّه رأى نوعام في المنام، وقد صار يتفنَّن في إذلالهم ومضايقتهم لأنَّه يعتقد أنَّ هؤلاء العمال ما هم إلَّا جواسيس لحماس، وأنَّهم أخطر مما يوحي به بؤسهم وانكسارهم الواضح.

وقد جاء دور نبيل في العبور، وكان من سوء حظه أن يكون تفتيشه على يد ناعوم، ويده الناعمة الطرية تتفحص ظهره وتحت إبطيه، ثم يطالبه برفع قميصه، على الرغم من أنَّ نبيل يتعرَّض لهذه

FOR AUTHOR USE ONLY

الإجراءات بشكل يوميٍّ، حتى غدت جزءً روتينيًّاً من طبيعة عمله، لذلك لم يكن يحفل بها في ما مضى، ولكنه الآن يجد صعوبة في تقبُّل هذه الإجراءات، ويرفضها أكثر لأنَّها على يد هذه الجندي ناعوم، لكم كان نبيل يعتقد أنَّه قد خلع (دماية) الكرامة منذ استخراجه أوَّل بطاقة ممغنطة تسمح له بعبور هذا المعبر، ويبدو أنَّه لم يكن على صواب، فها هو يحسُّ بالدم يقلي في عروقه، وملمس هذه اليد الناعمة وما لها من زحف حيَّة رقطاء يقشعرُّ منها بدنه، وعلى الرغم من أنَّ يدي نوعام كانتا تعبثان في جسد نبيل في مواضع بعيدة كلّ البعد عن جهازه التنفسي، إلَّا أنَّه أحسَّ بضيق في التنفس، وكأنَّ هذا النوعام يضع أصبعيه على فتحتي أنفه، بينما يحشر يده الأخرى في فيه، وبكلّ ما يملك من قوة ورغبة في الحياة أهوى بلكمة ساحقه على وجه نوعام، لكمة أودعها كلَّ غضبه وضيقه وأسفه على كل شيكل دفعه نظير الحصول على هذه البطاقة الممغنطة التي جلبت عليه كلَّ هذا الذل والهوان. تغضَّن وجه نوعام من وقع اللكمة والدهشة فبدا كقطعة أسفنجيَّة مبلَّلة بالماء، وإذا بالدم يجرى من منخيره وفيه وسط دهشته وذهول زملائه، بينما ألقى نبيل بجسده عليه ليسقطا على الأرض معاً، وقد فقد نوعام كلَّ رغبة في المقاومة، وقد استسلم ليد نبيل التي تعتصر عنقه، وقبضته اليمنى تتابع لكماتها على وجهه، وقد أحسَّ نوعام براحة نفسية عالية يجدها مريض الاكتئاب بعد كلّ مرض عضويٍّ منهك، كأنَّ هذه اللكمات تطهره من آلامه وسرِّ تعاسته، وما جعله يشعر بالراحة أكثر تحقَّق صحَّة نظريته عن هؤلاء الأغيار، فهم أكثر شراً مما يبدون عليه، ولكن من يخبر أولئك الرجال السذج في تل أبيب، والذين ينفقون ساعات نهارهم في إصدار هذه التصاريح الممغنطة التي يسرق بها مال شعب الله المختار، ومن بين كل عشر شياكل يسرقها هؤلاء الأغيار ثمانية شياكل ينفقونها على تطوير صواريخهم البائسة وإنتاج مثل هذا الكلب الذي يتابع لكماته بحماس على وجه سيده، ليقطع هذه الأفكار رائحة البارود وقنابل الغاز المسيل للدموع، وقد اشتبك جسدا نبيل ونوعام حتى عجز رفقائه عن فكِّ اشتباكهما، ومن بين كلّ ثلاث ضربات من كعوب بنادقهم الآلية واحدة كانت تضلُّ طريقها إلى جسد نبيل، فتسحق جسد نوعام فيعلو صراخه، حتى سكن جسد نبيل من وقع الضربات المتتابعة، وتحرَّر نوعام ليركل بقدمه وجه نبيل بكلّ قسوة وعنف، ولا حقاً أحيل نبيل للمحاكمة ليحكم عليه بالسجن سبعة عشر سنة، بينما نُقِلَ نوعام من المعبر حتى لا يؤجِّج وجوده رغبة المقاومة في صدور أصدقائه.

وفي داخل سجن ريمون التفت العائلات الحاجز الزجاجي وسماعات الهاتف للحديث مع الأسرى، ودموع الفرح والأصوات المتهدِّجة تظلِّل الجميع بسحابة رقيقة من الرحمة تلطِّف من جوِّ السجن

FOR AUTHOR USE ONLY

الكئيب، وقد احتضنت سعاد وجه زوجها من خلف الحاجز الزجاجي، وقد احسَّت بقلبه ينتفض بعنف يكاد يخرج من بين ضلوعه المتهالكة، لقد سرق هذا السجن عمر نبيل وامتصَّ عافيته، فهذا الشبح المتهالك من يستطيع أن يقول عنه أنَّه نبيل دبَّاغ الفتى الممشوق القوام، الممتلئ حياة وحيويَّة، لا تدري سعاد ما الذي يفعلونه بهم هنا؟ هذه ستة أشهر فحسب فعلت به الأفاعيل، فماذا ستفعل به سبعة عشرة سنة سيقضيها هنا وفقاً للحكم الصادر عليه؟ انخرطت سعاد في نحيب حار نكَّد على العائلات فرحتها بزيارة أسراها.

FOR AUTHOR USE ONLY

تحميض الفلم

تشير سعاد إلى نبيل ملوحة بيدها من خلف الزجاج السميك، وهي تضع سماعة الهاتف على أذنها ضاغطة على السماعة بإمالة رأسها في تركيز واهتمام شديدين، فابتسم لها، وبدت ابتسامته باهتة وحزينة من خلف الجدار الزجاجي، ومظاهر الانكسار والاكتئاب تجعل من وجهه ممسحة رمادية رثة لم تغسل منذ وقت طويل، وبدت لحيته ذات الشعر المتنافر كثآليل مقززة تتداعى على جنبات وجهه من كل صوب وحدب، من كان يصدق أن نبيل الدباغ الوسيم ذا الإطلالة المريحة يتحول إلى هذا المسخ الوقف أمامها،وقد بدا شاحب الوجه، وتزيده لحيته الشعساء شحوباً وذبولاً،حتى عينيه الواسعتين قد غارتا قليلاً، لم يبقِ من ملامحه المعروفة سوى أنفه الشامخ، ويبدو أنه قد احتفظ بشكله هذا بصعوبة واضحة، لا شكَّ أنهم يعبثون بملامح هؤلاء الأسرى بطريقة قاسية، وكأنهم على عجل من أمرهم في إخراج نسخ غير متوقعة منهم، حتى أمهاتهم سيعجزن عن التعرف عليهم إلا بصعوبة بالغة، لوهلة كذبت عينيها لولا أن تناهت إلى مسمعها ضحكته الصافية المجللة عبر سماعة الهاتف، أو هذا ما خيل لها، ولو كانت الأمور على ما يرام لميزت أن ثمة تغيراً كبيراً قد طرأ عليها، فلم تعد ذات الضحكة الصافية العميقة ذات النغمة السلسة والمريحة، وقد أضحت مجرد قهقهة متبلدة مصدرها ومبلغها تجويف فمه الذي يفتر عن أسنانه في فتور وكسل واضح، ولو علمت ذلك لوجدت له العذر في ذلك، فمن الصعب أن يحتفظ المرء بضحكة صافية مجلجلة في أعماق هذا القبر المسمى بسجن رامون، فقالت وهي تحاول أن تسري عنه:

عندي لك مفاجأة.

لم تثر الجملة فضوله، فهو يرى أن سعاد مازالت غريرة وساذجة لم تتلوث فطرتها بعد، إذ تبذل قصارى جهدها للتخفيف عنه، وهذا ما يزيدها جمالاً وحبا وقربا إليه، ولكنه الآن محطم القلب قلق البال بما يكفي فلا يأمل في سماع أي مفاجأة سارة يمكنها أن تدخل السرور على قلبه خلسة في ظل هذا الطوق الفولاذي للاكتئاب، والذي يحيط بقلبه في تماسك وإحكام، وعلى الرغم من أنه لم يسأل عن كنه تلك المفاجأة فإنها شرعت في الكشف عنها لولا أن صفارة السماعة منعتها من الاسترسال في الحديث وقد آذنت بانتهاء الزمن الرسمي للمقابلة، وعلى الطرف المقابل سحب الحارس نبيل الدباغ إلى الداخل وهو يلوح لها والدموع الحبيسة تملأ عينه فتبدوان مشعتان بأشعة آسرة خارقة اخترقت الجدار الزجاجي فأحست بموجة لذيذة من الدفء والرعشة تسري في كامل جسدها، ولم تفلت من تأثير تلك الموجة حتى استقلت الحافلة وهي تنهب الأرض في رحلة العودة إلى أرض القطاع.

وقد أعيد نبيل الدباغ إلى محبسه مثقل القلب والخطى، ومزيج ثقيل من الاكتئاب واليأس يجثم على صدره، فيكاد يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة، وهو الذي كان يمني نفسه بلقاء عاطفي عاصف، ليعصف بوساوسه وأحزانه، ويعيد ترتيب انفعالاته وخواطره بعد تنقيتها من تلك الشوائب السوداء

FOR AUTHOR USE ONLY

المبعثرة فيها هنا وهنالك، لكم تمنى أن يشكو إليها ويبثها أحزانه، ولكم كان مشتاقاً إلى سماع صوتها ورنين ضحكاتها المحببة إلى قلبه، لكم كان حريصاً من قبل على استخلاصها منها بشتى الوسائل من تصرفات مضحكة، وتلفيق قفشات مسلية من وحي حياته اليومية، يبدو أن معين ذلك قد نضب إلى الأبد، وقد توقف قلبه عن الاستمتاع بذلك منذ أسره، وقد جعل منه الأسر إنساناً شبه آلي، تحركه طاقة قوية من الاكتئاب والضجر والتبرم من الحياة ومن رفقاء الأسر، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين حظوا بزيارات من عائلاتهم اليوم، وما يزيده تبرماً وضيقاً بهم انهماكهم الآن في تحميض أفلام تلك الزيارة، فهاهم يبتسمون لأنفسهم في رضى وامتنان عجيب وهم يجترون ذكريات ذلك اللقاء الذي لم يمر عليه وقت قصير بعد، يبدو زاهداً في مشاركتهم تلك اللعبة السخيفة، لعبة تحميض الأفلام واجترارها، وربما يرجع ذلك إلى محصلته الفقيرة من اللقطات السعيدة خلال لقاء اليوم، وهذا يعني عجزه عن مجاراتهم في تلك اللعبة التي لا يمتلك المخزون الكافي من أدواتها، ولا المهارة اللازمة لإجادتها، وربما لأنه يرى أن الفكرة سمجة من الأساس، وما هي إلا محاولة طفولية ساذجة للإفلات من براثن اليأس والملل في هذا القبر الموحش المسمى بسجن ريمون، وذلك لأن تلك الأفلام ستفقد رونقها وبريقها مع كل اجترار جديد، وهو واثق من أن مفعولها السحري سينفد في غضون أربع وعشرين ساعة، وهو الآن في حاجة ماسة إلى شحنة إيجابية تدوم لفترة أطول من تلك، لكل هذا يتبرم ضيقاً بكل من في هذا المكان الضيق أصلاً، ولا يطيق الحديث مع أي شخص منهم، ويزمجر غاضباً في وجه كل من يتقرب إليه متوددا بالحديث معه الآن، ولكن مع ذلك لم تنقطع محاولاتهم المستميتة في استنطاقه والفضفضة عن مكنون قلبه، ولكن فشلت محاولاتهم المتكررة في الحصول على أي تصريح منه أو تعليق بخصوص زيارة زوجته اليوم.

FOR AUTHOR USE ONLY

اقترب ياسر زغلول والملقب بشيخ الأسرى، وهو لقب فيه شيء الغرابة، فمن يرى تصرفاته وأقواله المستهترة التي تجعله يبدو مستمتعاً بالأسر وحيثياته سيبدي استغرابه عن كيفية حصوله على لقب شيخ، هذا ما لم يكن المقصود هو طول فترة أسره، وحتى طول فترة سجنه لم تترك أثاراً عليه، إذ ما يزال يحتفظ بمعنويات عالية تكشف عنها ضحكاته المجلجلة كأنما هو في نزهة لساعات يعود بعدها هانئا راضياً إلى بيته، يبدو أن هذا الرجل بلا قلب، أو ربما هنالك عطب ما في عقله يجعله عاجزاً عن تبين حقيقة ودقة وضعه الكارثي الذي يعيشه الآن، فهذا الرجل الهازل الذي يدخن بشراهة محكوم عليه بالسجن لمدد مختلفة تفوق الخمسين عاماً.

لأول مرة منذ دخوله السجن يسمع فيها شيخ الأسرى يتحدث إليه بلهجة حادة وحازمة، وهو الشخص الضحوك الهازل، وهاهو يقول بحزم وقسوة:

ما الذي يحدث لك يا بني؟ هل أنت أول أسير وآخر؟ أخشى أن تعتقد أن حياتك أغلى من حياة كل هؤلاء الرجال؟ أتعتقد أن تذمرك سيخرجك من السجن؟ اعقل يا بني فأنت محكوم بسبعة عشر سنة،

ومازال أمامك الكثير من الوقت لقضائه هنا، وربما لا تخرج من السجن، أو تخرج منه إلى القبر، هذه الحقيقة التي عليك أن تواجهها، ليس أمامك سوى يومك هذا وعليك أن تعيشه بالطريقة التي ترضيك، ولا شأن لنا بذلك ، والحق علينا لأننا نريد إخراجك من هذا الوضع النفسي السيء الذي تعيشه الآن.

قال ذلك ثم تنحى عنه قليلاً وتبعه بقية الرفاق، وقد أحس نبيل الدباغ بوقع تلك الكلمات كصفعات قوية متتالية على خده، وأعقب ألمها شعور قوي بالراحة كأن كلماته تلك قد طردت سحراً عضالاً كان يخيم على قلبه، فغمره إحساس قوي بالراحة والانشراح فتقاطرت دمعات حرى على خده، وأحس بطعمها المالح يتسرب إلى حلقه، فسرت رعشة خفيفة في جسده ثم انخرط في بكاء صامت، ثم قام من موضعه وأقبل نحو رفاقه متهلل الأسارير، فابتدره شيخ الأسرى قائلا:

اعذرني يا نبيل على قسوتي عليك، لم يكن أمامي سوى ذلك لإخراجك من حالة الذهول التي كنت فيها.

لم يجد كلمة مناسبة يرد بها عليه فغمغم في رضى بكلمات مبهمة، يبدو أن هذا الرجل يستحق لقب شيخ الأسرى عن جدارة واستحقاق، وعلى الرغم أن كلماته كانت شديدة السلبية إلا أنها شحنته بشحنة إيجابية قوية، فهاهو يستمع باستمتاع وإصغاء تام لشيخ الأسرى وهو يقص قصة أسره، وقد أحس في قرارة نفسه أن شيخ الأسرى يسرد قصته الآن خصيصاً له، وربما يرغب في تسليته والترفيه عنه، وبدا منتبهاً لسماعه بكل حواسه، فكأنه لا يرغب في أن يفوته حرفاً من تلك القصة.

كان ذلك في صيف ١٩٨٠م، ولم أتجاوز حينذاك العشرين من عمري، لم يمر على زواجي من بنت عمه سلوى أكثر من سبعة أشهر، وقد تم اختياري فرداً في مجموعة عشرية فدائية تستهدف اختطاف إسرائيليين بغرض مبادلتهم برفاق لنا في السجون الإسرائيلية، وقد تم إنزال المفرزة على شواطئ تل أبيب، ومن ثم تسللنا إلى قلب المدينة، وقد تمكنا من إيقاف حافلة ركاب إسرائيلية ، وحافلة أخرى أيضاً تقل أحد عشرة راكباً، وتم دمج مجموعتي الركاب في الحافلة الأولى، وهنا بدأ الخبر ينتشر في المدينة والحافلة تشق طريقها إلى خارج المدينة، ومررنا بحاجز تفتيش على تقاطع شارع تمكنا من القضاء على أفراده وسلبنا أسلحتهم وجهاز اللاسلكي خاصتهم، وحملنا جثثهم على الحافلة، وكانت تلك أول مرة أخوض فيها قتالاً حقيقياً، وقد أصابني الرعب لدقائق ثم مرت رصاصة على مقربة من رأسي، بل على الأصح احتكت بأذني فاختلط أزيزها بالألم الذي سببته لي بجرح سطحي على شحمة أذني اليمني، وسال الدم الحار اللزج على جانب عنقي، وكان هذا كفيلاً باجتياز عتبات الرعب والولوج إلى قلب المعركة، وقد كان لتلك الغارة الخاطفة وما تحقق فيها من نصر سريع أثره البالغ على نفوسنا، فقد كسرنا حاجز الخوف، وارتفعت روحنا المعنوية وموجات اللاسلكي تنقل إلينا تعليمات شديدة اللهجة للدوريات وحواجز التفتيش بعدم السماح بخروج الحافلة بأي ثمن حتى ولو أدى الأمر إلى نسف الحافلة بمن فيها، وهنا علمنا أن الأمر قد تحول إلى قيادة الجيش من الشرطة، إذاً أخيراً استطعنا أن ننقل

FOR AUTHOR USE ONLY

الموت والرعب إلى قلب العدو، من يصدق أن هذه الدبابات المنتشرة في الشوارع وناقلات الجند تجوب شوارع المدينة بحثاً عن مفرزة خفيفة التسليح لا يتجاوز عدد أفرادها عدد أصابع يدي شخص واحد، وهنا قررنا التعديل في الخطة بسرعة حيث أنزلنا الركاب بسرعة، واكتفينا بحمل جثث الجنود الأربعة، وذلك حتى تم حصارنا في شارع ومكبرات الصوت تطالبنا بالاستسلام دون قيد أو شرط، وحينها قررنا عدم الاستسلام وخوض المعركة، هذا على الرغم من أن موازين القوى غير متكافئة، بل على الأصح لم يكن هنالك مجال للمقارنة، وقد ارتجلنا خطة سريعة تمكنا من إلحاق أكبر خسارة ممكنة بالعدو قبل القضاء علينا، وبالفعل بدأ سبعة أفراد منا بإمطارهم بالرصاص من نوافذ الحافلة، بينما التصقت أنا ورفيقي بأرضية الحافلة في انتظار دورنا من الخطة، وبالفعل بعد أقل من ربع ساعة استشهد رفاقنا السبعة وقد أصبحت الحافلة مصفاة كبيرة من كثرة ثقوب الرصاص بها، مازلت عاجزاً حتى الآن عن معرفة عدم انفجارها من كثرة ما تعرضت له من الرصاص، الذي لم يجد طريقاً ولو بالخطأ إلى خزان الوقود، وقد استمر العدو في إطلاق النار لخمس دقائق أخرى بعد توقف إطلاقه من قبلنا، ثم بدأ جنود العدو يقتربون من الحافلة بحذر وإن كان مصحوباً بضجيج عال ينم عن رعبهم، ثم تشجع بعضهم وصعد إلى الحافلة ورائحة البارود فيها تزكم الأنوف، وبالفعل وكما تقتضي الخطة أطلقت ورفيقاي النار عليهم بعد أن تظاهرنا بالموت وسط الجثث المتناثرة، وهنا لعلع الرصاص من داخل الحافلة وخارجها.

لم أدرِ حينها ما الذي حدث بعد ذلك، ولكن وجدت نفسي بعد ذلك في العناية المركزة، وقد أصبت بسبع رصاصات منها رصاصة في العنق وأخرى في الساعد واثنتان في الحوض، ومثليها في الفخذ والساق، حينها تأكد لي بأن في عمري بقية لا أدري مقدارها ولكن ما عرفته حقاً أن اسمي لم يكن في قائمة الموت في ذلك اليوم، وقد بدأ التحقيق معي عن الحادثة، وعلمت من أسئلتهم أننا قد كبدناهم خسائر فادحة بلغت خمسة عشر جندياً، منهم أحد عشر مقاتلاً من بينهم ضابط، بالإضافة إلى أربعة جنود من الشرطة على حاجز التفتيش، بينما استشهد رفقائي التسعة، وقد فصلت لي أربع قضايا مختلفة وصرت أحاكم في كل قضية أمام محكمة منفصلة، والقضايا هي: التسلل، واختطاف المدنيين، وقتل الشرطة على حاجز التفتيش، بالإضافة إلى التصدي للجيش وخوض معركة في المدينة وتعريض حياة المدنيين للخطر، كنت أتوقع أن يلحقوني برفاقي التسعة بأسرع ما يكون، ولكنهم في النهاية حكموا علي بمدد مختلفة فاقت الخمسين عاماً، وفهمت من ذلك أنهم لا يرغبون في إراحتي بالموت السريع، بل يريدون لي موتاً بطيئاً يسمح لهم بالتشفي والشماتة والانتقام، وقد تأكد لي ذلك تماماً من كثرة الزوار الذين يترددون على السجون للاستمتاع بمشاهدتي بملابس السجن، ومن ذلك الوقت قررت أن أحرمهم من تلك المتعة، متعة الاستمتاع بما يظهر علي من المعاناة والانهيار النفسي من السجن. وقد واجهت صعوبة شديدة في ذلك في البداية، ولكن شيئاً فشيئاً بدأت أجيد اللعبة واستطعت التحكم في انفعالاتي ومشاعري السلبية.

FOR AUTHOR USE ONLY

انطلقت صفارة التفتيش المفاجئ في أنحاء السجن، واقتحم الجنود الزنازين يعبثون بالسجناء ومقتنياتهم المتواضعة، ويبدو أنهم يبحثون عن أشياء تسللت إلى داخل السجن خلال زيارة اليوم، ويعجب من هذا الظن، كيف يعقل أن تتسلل إلى السجن أشياء بأي طريقة كانت؟ وهو سجن يعجز الأسير فيه عن إخراج صوته إلى ذويه إلا عبر سماعة هاتف عبر حاجز زجاجي سميك! فلو دخل شيئاً إلى هنا بعد كل هذا الحرص والتضييق فهذا يعني أن ثمة خائن بين هؤلاء الجنود، هذا ما لم يكن لأصدقائه الأسرى حيل لم يدرك كنهها بعد.

انتهى التفتيش المفاجئ بسرعة خاطفة، ولكنه خلف آثاراً تحتاج إلى وقت طويل بعض الشيء لمعالجتها، فقد قلب الجنود الغرف والزنزانات رأساً على عقب، وانهمك الأسرى في ترتيب أمتعتهم من جديد بمهارة وخفة، يبدو أن العبث بالأسرى ومقتنياتهم هو الهواية المفضلة لهؤلاء الجنود، وعلى الرغم من أن الأسرى مجبرون على تلك اللعبة ولكنهم أيضاً يجيدون قوانين اللعبة المفروضة عليهم، إذ يقومون بأداء دورهم في اللعبة بهدوء وفي الوقت المخصص لهم.

وعقب التفتيش انتقل الحديث عن موضوعات أخرى، ويبدو أن شيخ الأسرى لم يكمل قصته بعد، ولكن ما سمعه منه كان كافياً لامتصاص تذمره واكتئابه، لذلك انزوى نبيل الدباغ في ركن الغرفة وهو يحمض فلمه الخاص، وقد أدرك الآن حجم المكسب الذي حققه من زيارة وهو يتذكر وجها الطفولي الباسم، وعينيها الصافيتين، وقد زادتهما الدموع ألقاً وبهاء، وهي تبلل خدها الناعم بلطف، وها هو صوتها الهادئ المريح يناسب إلى أذنيه في نعومة وسلاسة، ثم تذكر فجأة أنها قالت بأن لديها مفاجأة لأجله، يا ترى ما لذي كانت تحمله في جعبتها من سر لا يعلمه هو، لم يخطر بباله سر تلك المفاجأة، فهل كانت تعني الحمل، فهذا أمر يعلمه قبل سجنه، ربما أخبرها الطبيب بنوع الحمل، يا ترى هل هي حامل بطفلة كما تمنى هو، وعلى ذكر الحمل لمَ لم يلاحظ آثار الحمل عليها، فهي في الشهر، وكيف تخاطر بالحركة في وقت كهذا، ثم طاف خاطر كئيب بعقله بسرعة، لا يظهر الحمل في بطن، ما لذي حدث بعده، يخشى أن يكون قد حدث مكروه لطفله القادم من رحم الغيب، أم كان الحمل كاذباً من الأساس، وهذا يعني أن المقصود من المفاجأة قد اتضح، أنه لم يكن هنالك حمل من الأساس، أحس بخنجر حاد يغرس في قلبه، لقد سمم هذا الخاطر تفكيره بشدة، فصار يتمتم لنفسه ببعض الأذكار ويستعيذ من الشيطان الرجيم، فبدأ النعاس يداعب عينه وصوت يتهادى إلى أذنيه من مكان ما من أعماق قلبه.

FOR AUTHOR USE ONLY

الحفل

شرع الجنود في التفتيش العاري للأسرى، هذه أول مرة يتعرض فيها لتفتيش كهذا، وهاهو الجندي ديفيد يعبث به، ويطلق قفشاته الماجنة، والتي يصف فيها جسده النحيل، هذا الجندي قد تجاوز حدود الوقاحة وهو الآن على مشارف حدود المجون والخلاعة، إذ يصف أعضاء حساسة لنبيل الدباغ حتى نفسه لم يلاحظ ذلك فيها، وكان ذلك أكثر مما يحتمل صبر ، ولو كان يحتمل شيئاً من هذا الإذلال الذي يتعرض له الآن لما كان هنا في السجن محكوماً عليه بسبعة عشر عاماً من الأصل، ما يزيده غيظاً أنه لا أحد من زملائه الأسرى يبدي اكتراثاً للتفتيش العاري، يبدو أن المناطق الحساسة في هذه الأجساد قد فقدت حساسيتها منذ وقت طويل، ولا بأس من عرضها على العامة بين الفينة والأخرى، ولو علم بعدد المرات التي تعرضت فيه هذه الأجساد لتفتيش كهذا لما أبدى استغراباً أو غيظاً منهم، من الصعب أن يعد الشخص منطقة ما من جسده عورة وهو قد تعرض لتفتيش عارٍ أمام الملأ أكثر من خمسمائة مرة، لابد أن كل سجين وسجان هنا لديه معلومات جغرافية وافية عن تقاطيع جسد أي سجين آخر هنا، إذاً هذا الحفل العاري صنع خصيصاً من أجله هو، لذلك انفجر بركان الغضب في صدره، وبدأت أبخرته تتصاعد عبر كل فتحة من فتحات وجهه ورأسه، وبكل ما يغلي فيه من غضب وتوتر أهوى برأسه على رأس ديفيد، ليسقط الأخير مغشياً عليه من هول الضربة، والدماء تغطي وجهه، يبدو أن هؤلاء الجنود يمتلكون مخزوناً دموياً سطحياً يسيل بأصغر وخزة على أجسادهم، وقد تمدد الورم الناتج عن الضربة بسرعة ليذيب المعالم الواضحة لشفتيه وأنفه، من يصدق أن هذا الوجه المتميع كقطعة من اللادن في فم فتاة مغناج يعود لديفيد، ديفيد الذي يحرص أشد الحرص على قمع السجناء بكل وحشية وقسوة، الآن علم سبب هذه القسوة المبالغ فيها، ألا وهو الحاجة إلى أن يبدو أقوى من زملائه الجنود الذين يعانون من المشكلة ذاتها، وهذا ما جعل بعض زملاؤه يهرعون في مساعدته، ولا إرادياً أهوى بعضهم بكعوب بنادقهم على جسد يتناوبون عليه في الضرب، في البداية لم يحس بقوة ضرباتهم حتى صار جسمه كتلة من اللحم المفروم على عجل، وسقاه تعجزان عن حمله، بل لم يعد يحس بوجودهما، يبدو أنهما انفصلتا عن جسده منذ وقت ليس بالقصير، ثم بدأ يشعر بألم حارق في صدره يبدو أن قفصه الصدري قد تصدع من وقع الضربات، ثمة فقرات قد تهشمت وبدأت توخز أحشاءه من الداخل.وقد تمكن الجنود من قمع السجناء بالعصي وقنابل الغاز المسيل للدموع،ما بدر منهم اليوم كان كافياً للتضييق عليهم أكثر، إن لهذا السجن قواعد صارمة لا يمكن العبث بها، لذلك تم تعديل حجرات السجن إلى زنزانات صغيرة، وألقي به وسط زملائه بين الغيبوبة والوعي، والدم ينزف من جميع أجزاء جسمه، وكل خلية في جسمه تئن لوحدها، ويكاد يسمع أنينها بوضوح.

ما هذه البرودة التي يشعر بها في أطرافه، ومتى تبللت أرضية المبني بالمطر، ما هذه الأصوات القادمة من أعماق الأرض، ولم تبدو له مألوفة جداً، وبدأت تلك الأصوات تقترب رويداً رويداً، الآن

FOR AUTHOR USE ONLY

يسمعها بوضوح، هذه أصوت دفوف، ثمة عرس ما على مقربة من هنا، ولكن لم لا يراه، ثمة ضوء ساطع قادم من البعد، اتضحت الرؤية تماماً، ثمة نسوة هنالك يضربن الدفوف، وقد وقفن في صفين مهيبين، يزيدهن مهابة الثياب البيضاء التي يلبسنها، وهذا ما يجعل المكان يبدو شاحباً ومخيفاً، ولا يتناسب مع هذه الأصوات التي تبعث الطرب في النفوس، تسرع بين الصفين عروس نحيلة ذات طول فارع، وذيل زفافها الأبيض يمتد خلفها لبضعة أمتار، وتحمل طرف الذيل امرأة تماثلها طولاً ونحافة، وثمة شي أسود يتدلى من المرأة الأخرى، وهنالك غلام يحمل لها ذلك الشيء المتدلي منها، وهو يسرع الخطى خلفهما، ويبدو أن رأسه غير مثبت بإحكام على جسده، فهاهو يتمايل يمنة ويسرة كلما أسرع الخطى، ثم ظهر غلام آخر وأهوى بقرص ما على الغلام الأول، فسقط رأس الأول بسرعة، ولم تجد محاولات الإمساك به نفعاً، لم يكن الرأس مثبتاً بما يكفي، كما أن الضربة كانت من القوة بمكان، بينما دخلت العروس إلى بيت ما وهي تلوح بيدها لتلك المرأة التي كانت تمسك بذيل زفافها.

FOR AUTHOR USE ONLY

ليلة تحت القصف

أقبل الليل ملتحفاً عباءته السوداء، طامساً لوحة القطاع بفرشاته السوداء، يتخلَّله وميض القنابل التي تنهمر على دفعات متقاربة، فيتداخل دوي القنابل بسارينات سيارات الإسعاف وأصوات انهيارات المنازل. ثمَّة بيت في أطراف القطاع ينبعث منه بصيص ضوء، بالداخل امرأة في العقد الثاني من عمرها ذات وجه طفولي وجسد ناحل أنهكته آلام الطلق، وعبثت بملامحه أمراض سوء التغذية، يبدو طلقها حاراً إلَّا أنَّ قواها الخائرة تخذلها فتعجز عن دفع الجنين إلى خارج الرحم، ذلك على الرغم من حثِّ النساء لها على الصبر وحسن البلاء، ولكن يبدو أنَّها فعلت أقصى ما تستطيع فعله، وقد بدأت تحسُّ بأنَّ جسدها يسترخي، بل شعرت بشيء غريب، وقد وجدت أنَّها صارت تتخفَّف من جسدها كمن يخلع عنه العباءة بعد عناء سفر شاقٍّ في نهار صيفيٍّ غائط، وثمة تيار بارد ينبعث من أسفلها، كأنَّ مكيِّفاً ضخماً وضع أسفل قدميها، وتتثاقل عيناها كأنَّ هنالك من يهيل عليهما كثيباً من الرمال الناعمة، تبدي المقاومة، فيزيد ذلك من تثاقل عينيها، فتستسلم لهذا الشعور. تصرخ النسوة حولها، وقد لاحظن عليها بوادر الإغماء، وجسدها البارد يوحي أنَّها ليست بخير، تمسك أحداهن بقدميها فتدلكهما، فيلسعانها كقضيبين من الثلج، فيعلو نحيبها، الآن علمت نوال أنَّ صديقة عمرها سعاد في طريقها إلى عالم آخر، لو كانت الأمور على ما يرام لأسعفتها إلى مستشفى غزة، إلا إنَّ ظروف الحرب الدائرة تجعل من إسعاف حالة ولادة متعسِّرة ترفاً يصعب توفيره الآن، عليها أن تسعف نفسها بنفسها وإلا فلترحل بهدوء، فالجميع في طريقه إلى هنالك وإن اختلفت مواقيت الرحيل.

أشارت سعاد بيدها إلى أسفل جسدها، فاتجهن بأنظارهنَّ إلى حيث أشارت في نفس اللحظة، فكانت إشارتها سؤلاً حائراً هل قدم المولود، فانهمرت دموعهن ولا مولود يبدو في الأفق، فابتسمت لهن ودمعة حارة تقطر من عينها اليمنى وتنحدر إلى طرف الوسادة أسفل رأسها، فزاد ذلك من بكائهن، وإذا بها تنظر إلى نقطة ما في أعلى السقف، وتتراءى لها أجسام بيضاء مضيئة تتسرَّب من تلك النقطة، يصعب تحديد ملامح تلك الأجسام، إلَّا أنَّ سيماها يبعث في النفس شعوراً دافئاً من الارتياح والألفة، ثمَّ أبصرت سعاد عروساً بيضاء البشرة، بضَّة الجسم، وضيئة الوجه، تشع فرحة طفوليَّة من عينيها، تتلألأ ابتسامة مشرقة بين شفتيها الدقيقتين، فتفترَّان عن أسنان متلألئة كحبَّات لؤلؤ صفَّت على حرير مخمليٍّ أسود، يزيدها فستان الزفاف إشراقاً وبهاء، وطفلتان قريرتان كعيني ظبي نفور تحملان ذيل الفستان، وهي تسرع بهما، فتتعثَّر خطواتهما في محاولة اللحاق بها، فتبدوان وذيل الفستان كبقايا ذيل مُذَنَّب يشقُّ طريقه

FOR AUTHOR USE ONLY

مسرعاً نحو الشمس غير عابئ بذيله الثلجيّ المتمدِّد خلفه، كلُّ هذا وإحساس يراود سعاد بأنّها تعرف هذه العروس، قد رأتها في مكان ما لا تدري ما هو ذلك المكان، ثمَّ بدأت تقترب منها شيئاً فشيئاً، وشعور سعاد بأنَّها تعرف هذه العروس يزداد أكثر فأكثر، وأخيراً عرفت من تكون هذه العروس، إنَّها هي نفسها! ولكن كيف؟ فأطلقت سعاد صرخة مكتومة امتزج فيها الخوف بالدهشة، فبدت لها كأنَّ الصرخة صدرت من فيها ولكنها اتجهت منه إلى رئتيها، فانتفض صدرها بشدَّة، فألقت نوال بجسدها عليها مطيحة بطفلها جمال –ذي الحول الواحد– من حجرها، فتدحرج الرضيع على الأرض وقطعة من الخبز مبلَّلة بريقه سقطت بجواره، وإذا بِدويٍّ عاصف للقنابل يرتجُّ له المكان، أعقبه صوت انهيار للمباني، وقد خطر لنوال بأنَّ هذه القنابل قد سقطت على منزلها بالذات، هذا وقد أحسَّت ببرودة قاسية في بطنها وبجفاف حاد في حلقها، وبضبابية في الرؤية تلقي ظلالاً على الأشياء حولها، وإذ برأسها يدور بقوة كترس صغير في ماكينة جديدة تمَّ تشحيمها بعناية، وقد عجزت قدماها عن حملها، وقد أصبحتا كخرقتين باليتين تتلاعب بهما ريح عاصف، فينتفض جسدها بعنف، فتسرى كهرباؤها الكيمائية إلى جسد سعاد تحتها، فتبادلها الانتفاض بعنف أكبر، وإذا بسائل حار لزج يبلل فخذي نوال ويسيل إلى قدميها، والنسوة يدحرجنها بعيداً عن جسد سعاد، حتى أنَّها لم تلاحظ أنَّ النسوة وقد أولدن سعاد توأماً، لا أحد يدري ما الذي دفع بهما الآن وقد استعصيا من قبل، كما لم يتوقع أحد أن يكون حملها توأماً، إذ إنَّ سعاد لم تخبرهن من قبل، ولا بطنها الضامر كان يشي بذلك، وتقطع رقية النجار حبل الدهشة والحبل السري في آن واحد، ثم تهرع النساء في إعانتها، وقد بدت سعاد ونوال منهكتين، فلو لم يدقِّق الناظر لحسب أن السيدتين قد وضعتا المولودين معاً.

FOR AUTHOR USE ONLY

العشاء الأخير

التفت أسرة رابين حول مائدة العشاء، وبريق السعادة يتألق في عيني رابين وزوجته كيفيرا حاييم، وهو يقول:

– نسور الجو نفذوا اليوم أكثر من مائتي طلعة. أتمنى أن يأتي يوم نتخلص فيه من هؤلاء الأغيار.

فترد زوجته في ملل:

– لا أظن أن ذلك اليوم سيأتي.. ستكمل ذخائركم قبل أن تقضوا عليهم.

يومئ رابين برأسه موافقاً زوجته على رأيها، لقد صدقت فيما قالت، فهو أكثر من يعلم ذلك جيداً، وقد كان لهم قائد يصف هؤلاء الفلسطينيين بالنبت الشيطاني، الذي يخالف في وجوده كل قواعد العقل والمنطق، فإذا كان العالم يتزايد بمتوالية هندسيَّة فهؤلاء الفلسطينيون يتزايدون بمتوالية سرطانيَّة خبيثة، اقتل فلسطينيًّا واحداً يظهر لك عشر، اقتل عشراً منهم ينبت لك ألف منهم، اقتل ألفاً فلن تجد لك موضعاً تقضي فيه حاجتك. ولا يزال رابين يتذكَّر كم من الفلسطينيين قتلهم هو بنفسه عندما كان جنديًّاً في الجيش الإسرائيلي، فيرتعش طرباً لذكرى تلك الأيام الخوالي، وقد عاد بخياله إلى حرب ١٩٥٦م، وقد اجتاحت كتيبتهم قرية خانيونس، ولم يجدوا بها مقاومة تذكر من قبل الفلسطينيين والجنود المصريين، وقد كان للمنشورات التي ألقتها الطائرات أثرها البالغ في تخفيف حدَّة المواجهات، ولكن مع ذلك توغلت الكتيبة بآلياتها بحذر شديد في شوارع المخيَّم، حتى أحكموا السيطرة على مداخل ومخارج المخيَّم، وقد خطب فيهم قائدهم شامير خطبة عصماء لا يزال وقع كلماتها وسكتاته البليغة يترددان في أذنيه كأنَّه يسمعها منه الآن، ذلك على الرغم من أنَّه نسى كثيراً من تفاصيلها، ولكنه يتذكَّر أنَّ شامير شحذ هممهم بتذكيرهم بالأسر البابليِّ، وبقصة الخروج الكبير، وبمحرقة ألمانيا، وحذَّرهم من الرأفة بعدوّهم، وقد سأل أحد الجنود المستجدين عن إمكانية قتل الأطفال، فحدجه شامير بنظرة نارية غاضبة جعلته يرتجف، ثمَّ عرج في خطبته إلى كيفية التعامل مع العدو، وأنَّ تعليماته واضحة وصريحة بهذا الخصوص، اقتل كلَّ شيء يتحرَّك، لا تكترث للنوع ولا للمرحلة العمريَّة، هذا ما كان يطبَّق علينا في السابق، وعلينا القصاص لأنفسنا، وختم خطبته مخاطباً الجندي صاحب السؤال بأنَّه بالذات يجب أن يعرض عليه في آخر النهار قائمة قتلاه، ويجب أن تحتوي القائمة على فئات عمريّة مختلفة من الذكور والإناث، وقد راقت فكرة القائمة لأفراد الكتيبة فتعالت صيحاتهم بالحماس والتأييد.

FOR AUTHOR USE ONLY

تدافع الفلسطينيون إلى خارج بيوتهم زرافاتاً ووحداناً استجابة لمكبرات الصوت التي تأمرهم بالخروج، وفكرة القوائم تسيطر على عقل رابين وعقول رفقائه وهم يصفُّون السكان على حائط القلعة، وبدأ حفل الشواء كما كان يسميه رابين ورفقائه، وقد كان الجندي المستجدُّ بجوار رابين وهو بادي الاضطراب، فداعبه ربين بأن أمره بإطلاق النار على الذين يكون ترتيبهم عدداً فردياً، بينما سيقوم هو بإطلاق النار على ذوي الترتيب الزوجيِّ، ويبدو أنَّ المستجدَّ كان على استعداد تامّ للحفل خلافاً لما يبدو عليه، وقد بدأ يحصد الصف برصاص رشَّاشه في حماس واضح، وقد استطاع أن يحصل على قائمة ممتازة تستهوي أي محلِّل إحصائي. وفكرة القائمة هي التي دفعت رابين إلى البحث في بيوت المخيَّم، فقد كان ينقص قائمته صنفاً مهمَّاً ألا وهو فتاة بين التاسعة والثالثة عشرة، وتمنَّى لو يحصل عليها حتى يقدِّم قائمة يفخر بتقديمها، وأخيراً وجدها وكانت فرصة أهدتها له السماء، وقد وصل إليها قبل رفاقه، وقد حاولت والدة الطفلة أن تستجديه وقد ركعت تحت قدميه، تتوسَّل إليه أن يقتلها هي ويترك ابنتها، فهي صغيرة ومريضة ولا ضرر منها، بينما الفتاة تنظر إليه ببرود، وكأنَّ الأمر لا يعنيها، وقد راقته هذه النظرة المتحدِّية من تلك الفتاة، وقد همَّ بأن يتركها ويقتل أمها، ولكنه لم يفعل لأنَّه تذكر أنَّ قائمته لا تتسع إلَّا لها، فأطلق رشقة من رشاشه أردت الفتاة وأمَّها معاً، وقد زادت قائمته عنصراً مكرَّراً، ولكنها زيادة طفيفة ومبرَّرة، وقد أحسَّ بشيء من الأسف لمقتل تلك الفتاة، ولكن لم يكن الذنب ذنبها ولا ذنبه هو، فلتعلن حظها العاثر الذي ألقى بها هنا، ولتعلن فكرة القوائم ومن كان ورائها.

FOR AUTHOR USE ONLY

انتزعت أصوات صفارات الإنذار رابين من شروده الذهني في رحلته التاريخية عبر دهاليز ذاكرته الصلبة، فحاول الهرب وهو يسابق أفراد سرته إلى الملجأ، بينما صاروخ القسام يتهادى في خيلاء في سماء المستوطنة وهو يلوح بلسانه هازئاً ببرنامج القبَّة الحديديَّة ومضادات الصواريخ التي تنطلق خلفه. يصل ديفيد ابنه إلى الملجئ وفي إثره زوجته كيفيرا، بينما سقط رابين متعثِّراً بقدم المائدة، ليسقط على وجهه وكأس الشراب يتشظى في يده، ولسانه يلعق ما سال من الشراب على أرضية الغرفة، ومزيج من النشوة والخوف يزلزل كيانه، فيشلُّ حركته، يحاول الوقوف على قدميه، فتنزلقان، فيسقط على الأرض مستلقياً على ظهره، وإذا بأصوات بشريَّة تأتي من مكان بعيد تتناهى إلى مسمعيه، يحاول الإنصات مركِّزاً في ذلك وقد نسى صفارات الإنذار، وثمَّة نقطة ضوئيَّة متوهجة تتراءى لناظريه، والأصوات البشريَّة تقترب منه رويدا رويداً، والنقطة الضوئيَّة تبدو ملامحها شيئاً فشيئاً، فتظهر في شكل كتلة ناريَّة حمراء لها ألف ذراع، كل ذراع منها بحجم مختلف، ولها أكثر من ألف وجهه، كل وجه له سحنة مختلفة، وتشي هذه الوجوه

بمراحل عمريَّة متباينة، وكلُّ وجه يصرخ بصوت مختلف، لا يدري من أين يأتون بكلِّ هذه الصرخات المتعدِّدة، يخالج رابين أحساس بأنَّه قد نبتتْ له ألف أذن في جسده فجأة، تستقبل كل منها صرخة مختلفة تقطِّع نياط القلوب، وبدا له أن يعرف هذه الوجوه، كما أنَّ هذه الصرخات تبدو له مألوفة، قد رأى هذه الوجوه وسمع صرخاتها هذه في مكان ما من قبل. ولأوَّل مرة في حياته يحسُّ بالضعف والخوف يعتصران قلبه، فتدور عيناه في محجريهما، ومن بين تلك الوجوه برز وجه كان أكثر إرعاباً لرابين وهو المرعَب أصلاً، كان وجه فتاة في الثالثة عشر من عمرها، وقد صوَّبت نظراتها كشعاعين من الليزر يخترقان عينيه كضوء كشافة قويَّة أضيئت في وجه جندي يرتدي نظارة الرؤية الليلية، والصرخات المنبعثة من الوجوه المحيطة بها تثقب أذنيه كدوي مئة مدفع في آن واحد، وعلى ذكر المدافع لهيب خفي يشوي وجهه، ليختفي كلُّ هذا بغتة ويبدو له رأس الصاروخ متجهاً إليه، كأنَّما هو مُعَنْوَن له بالاسم، وهو الذي كان يقلِّل من شأن قدرة هذه الصواريخ أمام أصدقائه وأسرته ويصفها بالعبثيَّة والبائسة، الآن فقط يدرك أنَّ هؤلاء القوم قد سئموا من أداء دور الضحيَّة، وآن لهم أن يتبادلوا معنا دور الجلاد. ارتطم المقذوف الصاروخين برابين، ولم يعد تعداد الإسرائيليين على ما كان عليه بالأمس، وقد نقص العدد واحداً، وهذا رقم ستحاول الرواية الرسميَّة إنكاره، كما أنه رقم سيكلِّف الدولة كثيراً في سبيل تعويضه.

****

أشرقت الشمس بوجه أحمر عبوس أشبه بوجه شخص سهر الليل وغفا قبيل الفجر، فأرسلت بعضاً من أشعتها الذهبية في تثاؤب وملل، وهي تشيح بوجهها بعيداً عن مكنون هذا الدمار الذي بات يلتهم معالم القطاع، وها هي تشقشقُ ما تبقى من ستارة الليل، كاشفة عن أنقاض المباني، كأنَّ زلزالاً بقوَّة تسع درجات على مقياس ريختر عصف بالأرض وما عليها، وما زالت محاولات البحث عن ناجين تحت الأنقاض جارية على قدم وساق، وقد اكتسب الباحثون تحت الأنقاض خبرة معقولة من تجاربهم السابقة، لذلك بدوا وكأنَّهم يمارسون عملاً شيِّقاً باحترافيَّة ومهارة واضحتين، وعلى الجانب الآخر من الحي بدأت مراسم التشييع الجماعيَّة تتراص في صفوف طويلة إلى مقبرة، من يبصر المشيِّعين يحسب أنَّهم لم يتركوا خلفهم من يبحث تحت الأنقاض عن الناجين، ومن يبصر عدد الباحثين تحت الأنقاض يطمئن إلى أنَّهم سيفرغون من الأمر قبيل انتصاف النهار، يبدو أنَّ أهل القطاع قد تعوَّدوا على ذلك، غالباً ما يقضون فصل الصيف في حفر القبور ودفن الشهداء، ثمَّ يقضون بقيَّة الفصول الأخرى في إعمار ما خرَّبته الحرب، فهم أشبه بكوكبة من الأطفال الوديعين يبنون بيوتهم على الشاطئ، وثمة طفل متنمِّر

FOR AUTHOR USE ONLY

يبعثر بقدميه في لحظات ما بنوه في ساعات، وما أن يغفل عنهم حتى يعودوا إلى البناء من جديد على أمل أن لا يأتي إليهم مجدداً، فلا المتنمِّر كفَّ عن هدِّ بيوتهم بقدميه، ولا هم كفُّوا عن إعادة تشييدها، حتى صار ما يقوم به جزء أصيلاً من اللعبة التي ألفوها وألفها.

فرقة من فرق الإنقاذ الباحثة عن الناجين تحت الأنقاض بدأت عملها في رفع أنقاض منزل غسان زوج نوال، وذلك بمعاونة الجيران والمتطوعين، إلا إنَّ المهمَّة لم تكن سهلة، ونوال تقطع القلوب بنواحها وهي تقلب الأحجار بجنون، والنسوة يحاولن عبثاً جرَّها بعيدا عن الأنقاض، وقبيل الظهر تمكَّن الرجال من استخرج جثة أم غسان حماة نوال، وقد وجدوها ملتصقة بكرسيها المتحرِّك، ومع استمرار عمليَّة البحث وتطاول الوقت بدت نوال تستعيد توازنها، فليست هذه المرة الأولى التي تفقد فيها عزيزاً في الحرب، ففي الحرب السابقة استشهد أخوها على مشارف القطاع في اشتباك مع قوات الاحتلال، في الوقت الذي استشهد فيها أبوها تحت الأنقاض ونحت هي بأعجوبة. وأخيراً تمكَّن الرجال من انتشال جثَّة غسَّان من تحت الأنقاض، فألقت نوال بنفسها عليه، والنسوة يحاولن تخليص الجثة منها عبثا، وبصعوبة بالغة خلصَّن الجثة منها، وحملت إلى بيت صديقتها سعاد، في الوقت الذي فرغت فيه أم عياد من غسل جثة سعاد وتطيبها، وانطلقت مسيرة تشيع الجثث الثلاث جثتي غسَّان وأمه وجثة سعاد، اجتمعوا في موكب التشييع كما جمعتهم صلة الجوار والقرابة من قبل، والآن يجمع بينهم الموت وإن اختلفت أسباب الوفاة. وفي الداخل استلقت نوال على أحد جانبي سرير سعاد، وقد عصبت رأسها من صداع رهيب له وقع عشرة مطارق في آن واحد، وبصوت مبحوح سألت عن التوأم وهي تسمع بكاؤهما ولا تراهما، فقربنهما منها، وأخبرنها عبثاً حاولن إرضاعهما فلم يرضعا ولم يكفَّا عن البكاء حتى خشين عليهما من الهلاك. ووضعت نوال جمال بجانبها وقرَّبت التوأم من صدرها، فبدا التوأم كأنَّهما يسلكان طريقاً مألوفة لديهما، فلم يضلا طريقهما إلى ثدي نوال، كما لم يترددا في رضاعة الضرع للحظة واحدة، بينما صرخات جمال تملأ الغرفة، فيزيد ذلك التوأم التصاقاً بالثدي.

وهنالك على بُعد كيلومترات من الحي وبالتحديد في مستوطنة سيدروت بدأت إجراءات تشييع جثمان رابين، وأفراد أسرته يرتدون السواد، وقد أطلَّت نظرة مزجاة من الحزن والغضب العارم من عيني الأرملة الجديدة، وقد بدا شقيقها منشغلاً بالحديث عن ترتيبات الجنازة مع رجل يرتدي بدلة سوداء أنيقة، وقيل أنَّه مسئول أمني رفيع في الموساد، وقد كان صديقاً لرابين، وجمعتهما رفقة الدرب والسلاح، هذا وثمَّة فريق عسكري بدأ مهمَّة جمع حطام الصاروخ من أرجاء البيت، ثم أقبل صاحب البدلة

FOR AUTHOR USE ONLY

السوداء نحو سارة يواسيها في فقدها، وهي ظاهرة الحزن والتأثر وقد فقدت قدوتها وفاكهة حياتها، وقد كان الأقرب إلى قلبها وأكثر الناس اهتماماً بشأنها، وقد كانت تجد لذة في الجلوس معه، ولم تملّ من الإنصات إلى بطولاته الخارقة، ومما يلقيه من دعابات ساخرة، الآن كلُّ هذا لن يكون له وجود بعد الآن، وقد أظلمت سيدروت في ناظريها وقد فقدت إنسانا عينيها، وبدا وجه البيت كئيباً بشعاً بعد رحيل رابين، لن تبقى يوماً واحداً هنا بعد، وقد صارحت صديقها إيزاك بهذا، فنصحها بعدم الرحيل عارضاً عليها المساعدة، ولم تفلح توسلاته ودموعه في ثنيها عن الرحيل.

وحمل جثمان رابين في تابوت أعدَّ خصيصاً له، وقد جمعت في (الطاليت) أجزاء جسمه المبعثرة مع الجزء الرئيس من جثته، وقد وتأخَّر تشييع الجثمان بسبب عدم عثورهم على الأصبع الوسطى من يده اليمنى، وفي النهاية قرروا دفنه حتى ولو لم يجدوا تلك الأصبع، وذلك لتأخَّر مراسم التشيع بسببه.

FOR AUTHOR USE ONLY

التمرد

بدأت حالة نبيل تسوء يوماً بعض يوم، ما لم تحصل معجزة فمن المستحيل أن يتماثل للشفاء وهو لم يتلقَّ أي علاج من الأصل، ومازالت إدارة السجن تماطل في علاجه حتى ولو كان على نفقته الخاصة، وتكتفي بما يوصي به طبيب السجن من مسكنات ومهدئات تراوغ المرض ولا تشرع في علاجه، يبدو أن الحرمان من العلاج هنا عقوبة إدارية ووسيلة فاعلة للقتل البطيء في آن واحد، فسجين مريض خير من سجين يتمتع بصحة ولياقة بدنية عالية، كما للأمر فوائد أخرى غير مباشرة، ستقل نفقة إطعام السجناء، كما يكون قد نقص عدد السجناء المزعجين واحد، لذا لم يجد أمامه وسيلة للضغط سوى الانخراط في تحدي الأمعاء الخالية، فبدأ الإضراب عن الطعام إلى أن تستجيب إدارة السجن إلى طلبه بتلقي العلاج، وبمرور اليوم الثالث لم يعد جسده المتهالك يتحمل أكثر، فغاب عن الوعي، وهنا شرعت إدارة السجن في إعطائه السوائل المنقذة للحياة وبعض الفيتامينات البديلة عن الغذاء.

خرج الأسرى إلى الفورة خروجاً جماعياً مباغتاً، مطالبين بعلاج ونقله إلى مستشفى ، الآن أصبحت دلائل الفوضى والاضطراب في ساحة السجن في أوجها، وقد قام السجناء بإحراق ملابسهم وفرشاتهم وأغطيتهم، ليشكل ذلك سحابة مخيفة من الدخان، وقد عجز الجنود عن السيطرة على السجناء، لذلك تم استدعاء فرقة القمع الخاصة وبدأت معركة تكسير العظام وتطويع السجناء من جديد، وبانجلاء المعركة وإرجاع الأسرى إلى زنزاناتهم أوصى مندوب الموساد إدارة السجن بضرورة الإنحاء للعاصفة، فالوقت غير مناسب لانفجار ثورات أخرى في هذه السجن وغيره من السجون بينما الدولة منهكة هنالك في الخارج في التعامل مع الانتفاضة التي تتمدد رقعتها الجغرافية يوماً بعض يوم، لذلك لا بأس من الاستجابة لطلب السجين بتلقي العلاج على أن يكون ذلك على نفقته الخاصة.

FOR AUTHOR USE ONLY

خرج مأمور السجن من مكتبه حانقاً، لقد سئم من تدخل رجال الموساد في صميم عمله، فأحياناً يطالبون بحبس انفرادي لبعض السجناء، وأخرى بضرورة التضييق على بعض السجناء وإرهاقهم جسدياً، لا شيء من هذا يتعارض مع خط إدارته لهذا السجن، إلا أنه كان يتضايق من الطريقة الاستعلائية التي يطلبون بها ذلك منه، الآن وصلت بهم البجاحة إلى أن يطلبوا منه الاستجابة لطلب السجين رقم (٣١١٣)، لو كان ذلك سجيناً آخر لما وجد لهذا قبولاً في نفسه، فكيف من هذا السجين بالذات، هذا السجين الذي حطم أنف جنديين إسرائيليين على الأقل حتى الآن وفق ما تظهره الأوراق الرسمية، وإن كان متيقناً من أنه والغ في الدم الإسرائيلي أكثر من ذلك ولا أحد يدري، يبدو أن رجال الموساد قد فرغوا من انشغالاتهم ولم يعد أمامهم ما يزجون به الوقت سوى التسلي بالتدخل السافر في إدارته لهذا السجن، ولكن هيهات، هذا السجن له تاريخ وسمعة أدارية غالية لا يمكن التفريط فيها لمجرد أن لرجال الموساد رأياً في ذلك، هذا السجن مملكته الخاصة ولن ينفذ فيه إلا ما يريده هو وحده لا غير.

ثم تذكر فجأة القوة الخفية التي يملكها الموساد في التأثير على القرارات المصيرية للدولة، وقدرته في خلخلة الإدارات الحكومية وفتح مكبات الفساد فيها، ما يحنقه أكثر أنه يعجز عن تحدي هذا البعبع المخيف الموساد في هذا التوقيت، فهو الآن في الثامنة والخمسين من عمره، ويحلم بتقاعد مريح وتكريم لائق في نهاية حياته المهنية، لقد حرص على الاحتفاظ بسيرة عطرة طوال مدة خدمته السابقة، ليس الوقت مناسباً لتسرب أي رائحة عفنة منه الآن، وخاصة أن مندوب الموساد قد لا حظ تردده في تنفيذ ما أشار به من الاستجابة لطلب السجين، وقد أشار المندوب من طرف خفي عن كمية أجهزة المحمول التي تتسرب إلى السجن، فضلاً عن كمية من الأغراض التي تخرج من السجن، الآن فطن إلى هذا التهديد المغلف بالنصح والإرشاد، ولكنه ليس من طبعه أن يكون على استعداد لمطاوعة أي قوة ترغب في تطويعه وقهره، وهو الذي يملك خبرة تفوق الثلاثين عاماً في إعداد كؤوس عالية الجودة والنقاء في تطويع السجناء وقهرهم، فهل حان الوقت ليشرب من الكأس نفسه؟

لم يدر بخلده أنه من بين أسوار هذه المملكة الحصينة خرجت نطفة ما خلسة ذات نهار، وهي الآن قد أصبحت كائناً حياً يمشي على قدمين، ولم يكن يعلم بذلك حينها، ولا حتى رجال الموساد الذين يحشرون أنوفهم في كل شيء يعلمون حينها بأن الفلسطينيين قد أدخلوا سلاحاً جديداً إلى أرض المعركة، ألا وهو سلاح التكاثر عن بعد.

لم يكن شيخ الأسرى من المتحمسين لهذا النوع من التكاثر، بل لم يكن يؤمن بوجوده من الأصل، وإن وجد فما جدوى إضافة بائس آخر إلى أسرته البائسة فعلاً في هذا الوضع المزري، لقد عرض على ابنة عمه الطلاق وأن تكمل حياتها بدونه، فلا أمل له في الحياة مع كل هذه الأحكام المؤبدة التي تحتاج إلى أكثر من عمره وحده لقضائها، ولكن إيمانها به كان قوياً، وتشبثها بحياتها الزوجية كان أقوى، وأكدت له مراراً إنها إن لم تكن له بعد فلن تكون لغيره، فستظل في انتظاره فربما يأتي يوماً يخرج من السجن كما نجا من الموت بأعجوبة.

وقد وصلت لشيخ الأسرى رسالة شفهية من زوجته تعرض عليه الفكرة، وأنها ترغب في ذلك بشدة، وقد تلكأ في الرد بسبب الوساوس واليأس الذي يعتريه آنذاك، وقد فكر كثيراً في الأمر، فلم يستطع استيعاب خروج نطفة منه عبر بوابة السجن بسهولة، وحتى إن خرجت فلا أحد يضمن وصولها صالحة إلى هنالك، وحتى إن وصلت صالحة من أين لهذه البائسة تدبير المال اللازم لمثل هذا النوع من الحمل والإخصاب الذي يكلف أموالاً طائلة، والتفكير في كل سبب من تلك الأسباب على حده كفيل بجعله متردداً في القبول، أما التفكير في كل تلك الأسباب مجتمعة يجعله يرفض الفكرة من أساسها، وظلت الفكرة تتشبث بحبل الرفض في عقله فيؤرجحها تأنيب الضمير بعنف، لقد تمكن هذا السجن من تحجير قلبه، حيث أن مساحة القسوة وعدم الاهتمام بأهله أصبحت تزداد يوماً بعد يوم، وهاهو الآن يتردد في إخراج عينة صغيرة من جسده إن لم يكن إخراجها نافعاً فلن يضره بشيء، ولكنها بالمقابل قد تصنع

FOR AUTHOR USE ONLY

فارقاً كبيراً في حياة هذه البائسة التي تحلم بخروجه يوماً ما، انهمرت الدموع الحارة من عينه وأحس بلل طفيف بين فخذيه، لقد حسم الأمر أخيراً، وهو يتحسس قنينة عينة البول التي دبرها له صديقه من معمل السجن، والتي وظلت تراوح مكانه في جيبه حتى ذلك الوقت، وملمسها البارد يوخز ما تبقى حياً من ضميره الموشك على التبلد والجمود.

وقف الأسير المحرر وهو يخضع لتفتيش أخير قبل مغادرته السجن، فاهم ينثرون أعراضه البسيطة أمامه، وكنوع من الاحتراز تم تفتيشه تفتيشاً ذاتياً، لو أن الأمور سارت كما ينبغي ربما يكون هذا آخر عهده بتفتيش من هذا النوع، أو هذا ما يتمناه على الأقل، خطر كل ذلك بعقل الأسير بينما كان الجندي راؤول نظرة ينظر إليه بنظرة غريبة مزيج من الدهشة والاستمتاع، وهو يلوح بالقنينة التي وجدها معه، وقد دهش الجندي من حرص هذا الأسير على اختلاس تلك القنينة، لا يدري ما الذي يقصده بفعله هذا، هل نوع من التشكيك في نزاهة معمل السجن؟ أم هو نوع من الاحتفاظ بذكرى رمزية لفترة السجن؟ أم هي نوع من ادعاء البطولات الزائفة بأنه قد أخرج شيئاً من ممتلكات السجن رغم أنف السجان؟ وبدأت الأسئلة بخصوص القنينة تتداعى في عقل راؤول، ولكنه وضع حداً لذلك بأن قرر أن يحتفظ بتلك القنينة حتى ولو لم يتمكن من معرفة كنه حرص الأسير على الخروج بها، لا يستطيع التكهن بما يمكن لهؤلاء الأغيار فعله بقنينة كهذه، وزاده إصراراً على ذلك ما لاحظه من اضطراب ومسحة حزن خفية ارتسمت على وجه الأسير، لذلك قرر أن يحرمه من الاحتفاظ بها حتى ولو لم يتمكن من معرفة سرها حتى الآن، وقد دفعه الفضول إلى نزع السدادة عنها، وإذا برائحة كريهة تنبعث منها، فألقى بها بعيداً وهو يلعن الفضول الذي جعله يتفحص قنينة بول مقززة، كما يلعن الأسرى الذين يحتفظون بروح الفكاهة وصنع المقالب في هذا القبو المظلم المسمى بسجن ريمون، ولكن على الرغم من كل ذلك التدقيق وروح الفضول المتوثبة لدى راؤول لم يشك للحظة في ذلك القلم الذي خرج به الأسير في جملة مقتنياته المتواضعة التي غادر بها السجن، حتى الأسير المحرر نفسه لم يكن يدر أنه يحمل في أنبوب القلم ملايين الحيوانات المنوية في طريقها إلى دورة حياتها الجديدة في موضع آخر.

FOR AUTHOR USE ONLY

الزيارة

الآن تشير عقارب الساعة إلى الثانية والنصف صباحاً، وتباشير الفجر القادم تسلل عبر عباءة الليل الدامس فتجعلها رمادية باهتة اللون، وهواء يناير البارد المنعش المشبع بدعاش المطر يتسرب إلى الصدور، فيريح النفس ويبعث فيها المرح والحبور، ويزيد الأمر حماساً وسروراً تساقط حبات البرد بين الفينة والأخرى، ثمت بيت على أطراف القطاع يظهر فيه نشاط بشري محموم على غير العادة في هذا التوقيت، وأصوات مرحة تتعالى من الداخل، طفلان في العاشرة من عمرهما، تبدو عليهما إمارات السعادة والحبور واضحة لا تخطئها العين، وهما يجوبان البيت في حيوية ونشاط زائدين، لقد مرت السنون بسرعة، ويبدو أثرها واضحاً على هذين الطفلين، هذه المرة الثانية التي سيزوران فيها والدهما في سجن ريمون، وقد كانت الزيارة الأولى لهما قبل ذلك بخمس سنوات، وعلى الرغم من أنها كانت لنصف ساعة فقط إلا أنها قد تركت انطباعاً جيداً في ذاكرتيهما، وقد كان ذلك أول تواصل مباشر مع والدهما في ذلك اليوم، حيث أدخلا إليه في داخل القفص الزجاجي للزيارة، فعانقهما عناقاً حاراً لخمس دقائق، لم يكف فيهما عن البكاء للحظة، بينما يدا زياد تلتفان حول عنقه، وإياد يدفن رأسه في حضنه، ودموعه تتقاطر على الشعر الناعم لرأس إياد فيزيد تألقاً وبريقاً، ثم انتزعهما الحارس منه انتزاعاً، ودفع بهما إلى خارج القفص الزجاجي، ليكملا تواصلهما عبر سماعة الهاتف، الآن يشعران بالفخر والحماسة لزيارة أبيهما السجين والذي يدفع ثمن عزة نفسه وكرامتها بالسجن هنالك في سجن ريمون، وهاهي تنادي بقلق:

هيا لقد تأخرنا..

لقد أصبحت جزء من هذه الأسرة، بل على الأصح لقد صار هذان الولدان جزء منها، فهي من أرضعتهما بعد موت أمهما عقب الولادة مباشرة، ثم تكفلت بتربيتهما، وزاد تعلقها بهما بعد وفاة ابنها الصغير بالحمى، وقبل ذلك زوجها في غارة جوية على القطاع، لا تدري كيف كانت ستقضي حياتها بعدهما لولا أن أكرمها الله بكفالة هذين الطفلين، فهما كل ما يربطها بالحياة في هذه المنطقة.

لقد قدمت الطلب لزيارة أبيهما قبل سنتين، ولم تتلقَّ رداً أو وعداً أو صداً في حينها، فكل ما في الأمر أن طلبوا منها ترك وسيلة الاتصال بها عندما تكون الزيارة متاحة، ويبدو أنها لم تتح إلا بالأمس، وقد تلقت اتصالاً هاتفياً بالتصديق لهم بزيارة في الغد، ولذلك كانت الليلة أطول ليلة وأسعدها في حياة الطفلين.

وصل الجميع إلى سجن ريمون، وهاهم الآن وقوف أمام الحاجز الزجاجي في انتظار ظهور، ومن مسافة بعيدة خلف الزجاج السميك ظهر ويمشي بصعوبة، ويبدو أنه يعاني في التحامل على قدميه اللتين تكادان تعجزان عن حمله، بينما الحارس يدفعه أمامه بعنف لحق به جندي آخر وهو يحمل في يده ورقة

FOR AUTHOR USE ONLY

ما، ما أن لحق بهما حتى قدم الورقة للجندي الأول والذي قرأها باهتمام ثم أعطاها للسجين أمامه وثمت ابتسامة ماكرة قد ارتسمت على وجهة.

تناول الورقة وقرأها باهتمام شديد، ومع كل سطر من سطورها انفجرت براكين من الغضب في قلبه، على الرغم من كل ما يعرفه عن مأمور السجن من نذالة وظلم وخسة إلا أنه لم يخطر بباله أن تبلغ به الخسة أن يخيره بين الحصول على زيارة أهله وبين الحصول على فرصة لمقابلة الطبيب الأخصائي خارج السجن على نفقته الخاصة، فهاهو الآن يقرأ أن هذه هي فرصة لقاء الطبيب قد أتيحت له الآن، وعليه التوقيع على هذه الورقة إن كان يرفض ذلك، ولا يحق له المطالبة بتلك المقابلة إن أضاع هذه الفرصة الآن.

FOR AUTHOR USE ONLY

الوظيفة

الثامنة صباحاً ومازال إياد مرابطاً أمام هذا المكتب بمصنع السلماني للغزل والنسيج، هذه هي المرة الثانية التي يجلس فيها في هذا الموضع الذي جلس فيه قبل عام من الآن، عام تغيَّرت فيه أشياء كثيرة في حياته ولم يتغيَّر فيه شيء يذكر في هذا المكتب، مازالت الطاولة المستطيلة تربض في ذات موضعها في وسطه، وأمامها كرسيٌّ متواضع، بينما يطل من خلفها ثلاث كراسٍ توحي بشيْ من الفخامة والارتياح، نظرة خاطفة من الداخل تكفيه ليفهم أن مراتب الناس تتفاوت في الحياة على الأقل في هذا المكتب.

يبدو أن من وضع أثاث هذا المكتب اختاره ووضعه في هذه المواضع بعناية فائقة، فأول ما سينتاب الجالس على الكرسي الأمامي هو الإحساس بالضآلة وقلَّة القيمة أمام الجالسين خلف الطاولة، وهذا ما انتاب إياد لأوَّل مرة جلس فيها على هذا الكرسي، لا يدري هل سينتابه هذا الإحساس مجدداً الآن؟ اعتقد أنَّ الإجابة بـ(كلَّا) عن هذا السؤال قد تكون منطقيَّة، إذ إنَّ الظروف الآن في صالحه، فقد كان عدد المتقدمين للوظيفة كبيراً في المرة السابقة بالإضافة إلى محدوديَّة الوظائف، فضلاً عن عدم حصوله على سابق خبرة. الآن لديه خبرة لا بأس بها(خبرة عام)، كما حصل على تزكية خاصة من مراقب الوردية يوصي فيها بتثبيته بالعمل، لكلِّ هذا يعتقد أن هذه المقابلة الآن هي مجرد مقابلة إجرائيَّة وسيوقَّع بعدها على عقد العمل، انتشله من هذه التأملات نداء الساعي يدعوه للدخول لمقابلة اللجنة.

خطا إلى المكتب وهو يذاكر كلَّ ما قرأه وشاهده على الإنترنت عن رهاب المقابلة وأسئلتها السخيفة والمقلقة، وأعدَّ قدراً لا بأس به من الإجابات التي يتمنى أن تكون مُرضِية، لذلك استعاد رباطة جأشه وهو يلقي التحية عليهم، وقد أحرجه البرود الذي قوبل به، ولكن لا بأس هذا أمر يهمهم، ما يهمه الآن أن يركِّز جيداً حتى يجيب عن أسئلتهم الاستفزازيَّة، وقد قال أوسطهم وهو يطالع أوراقي أمامه:

أنت إياد نبيل الدباغ؟

وقال آخر:

أنت تعمل هنا منذ عام؟

بينما قال الثالث:

هل ترغب فعلاً في العمل هنا بصفة دائمة بعد؟

هل أنا في ورطة؟ هذا سؤال وجه إياد إلى نفسه سراً. فهذه ثلاث أسئلة لم يتوقَّع أن يسأل عنها، لذلك بدا التردد والخوف واضحين على قسمات وجهه، لا يدري عن أي سؤال يجيب في البدء وكلُّهم

FOR AUTHOR USE ONLY

يحدِّق في وجهه وعيناه تقولان ابدأ بالإجابة عن سؤالي. وقد أعجب اضطرابه أكبرهم سنَّاً وأرفعهم قدراً فقال منهياً الأمر:

لا بأس. حصلت على العمل، فقط عليك اجتياز الكشف الطبيّ.

تهلَّلت أساريره، واعترته خفة كادت تدفعه إلى الانكباب على رأس هذا الرجل وتقبيله، لولا أن تمالك نفسه بصعوبة بالغة ودمعة فرح حارَّة تشقُّ طريقها على خدِّيه، وعلى الرغم من فرحه البالغ بالنتيجة التي آلت إليها هذه المقابلة إلَّا أنَّها في المقابل خيَّبت ظنِّه، وجعلته يتحسر على كلِّ ما أنفقه من وقت وجهد في تصفح الإنترنت لتحضير إجابات نموذجيَّة لأسئلة من نوع لماذا على الشركة أن توظِّفك؟ وكم تستحق أن تأخذ أجراً على هذه الوظيفة؟ ونحو هذا من الأسئلة الاستفزازيَّة التي لا يعرف ما المغزى منها، ولكن ما يعرفه الآن بعد هذه المقابلة أن أسئلة المقابلة قد تطوَّرت كثيراً، وعلى خبراء الإدارة أن يولوا كتبهم بعض العناية بالتنقيح والتحديث، وإلَّا فلا أحد سيهتم بكلِّ الفصول التي تتعلَّق بالمقابلة وأسئلتها الاستفزازية، وقد ضربت هذه اللجنة عرض الحائط بكلِّ ما يتوقَّعوه من أسئلة افتراضيَّة، تلك الأسئلة التي يقدِّم لها خبراء التوظيف إجابات افتراضيَّة مثلها ثمَّ ينصحونك بأن لا تستخدمها، إذاً الأمر أبسط ممَّا يصوّرونه لك.

الآن عليَّ أن يهنِّئ نفسه مقدَّماً على الرغم من أنه لم يجتز الكشف الطبيَّ، ولكن بناء على خبرته السابقة بالكشف الطبيِّ في هذه الشركة يقول بثقة: إنَّه لن يستغرق سوى دقائق معدودات وإن كان مصحوباً في الغالب بشيء من الفحوصات الروتينيَّة. دلف إلى حجرة الطبيب فتلقَّاه باشَّاً كأنَّه كان في انتظاري، وربما كان مزاجه رائقاً اليوم، لا يبدو على عجل من أمره كالمرَّة السابقة، هذا ما استنتجه إياد من مقارنته بين طريقتي كشفه عليه سابقاً والآن، لا يدري لمَ يوليه كلَّ هذا الاهتمام في كشفه عليه الآن، ربما يرجع هذا إلى أنَّه الآن في مرتبة العامل الدائم، وقد اجتاز مرتبة العامل المؤقَّت، فبهذا يمكن تفسير فارق التوقيت بين زمني الكشفين الطبيَّين لنفس الطبيب على نفس الحالة(يعني نفسه). دار كلُّ هذا بخلد إياد وهو يستلم نتيجة الفحص المعمليِّ، فهو واثق من أنَّها ستكون جيَّدة، لأنه يتمتَّع بصحَّة جيَّدة، كما أنَّ سلوكه قويم ولا فخر، ولا يتعاطى المخدرات، ولم يتعرَّض لنقل دم من قبل والحمد لله، لذلك يتوقع أن ينهي هذا الطبيب الأمر بمهر ملفِّه بتوقيعه بعد أن يكتب عليه عبارة(لائق طبيَّاً). طالع الطبيب نتائج الفحوصات ثم التفت إليه قائلاً:

FOR AUTHOR USE ONLY

نتائج فحوصاتك جيِّدة، ولكن تبقَّى إجراء كشف أخير عليك، نسيته من قبل، لا تقلق فلن يأخذ منك وقتاً طويلاً، ألا وهو الكشف على أسنانك.

إذا استثنينا كلَّ هذه المضيعة للوقت، وتجاوزنا عن هذه القائمة العشريَّة من الفحوصات– فقوله (لا تقلق) وحده يجعله يشعر بالقلق أكثر من أيِّ وقت مضى، ويثير في عقله كثيراً من الأسئلة، لمَ يماطل هذا الطبيب؟ وعلامَ يتردَّد عن كتابة عبارة (لائق طبيًّا)؟ وهي عبارة أصبح يستحقها الآن عن جدارة، ولكن من يقنع هذا الطبيب الذي يصرُّ على تفقد كلِّ شبرٍ من جسده، كأنَّما يبحث عن شيء ما، ويتوقَّع أن يجده في فمه بعد أن بحث عنه في صدره وبطنه وبصره، بصراحة لم يستسغ كشف الأسنان هذا، ولم يجد له مبرِّراً أبداً مهما حاول ذلك، قد يتفهم أن يتفحّص الطبيب بصره وصدره وجزعه وأطرافه؛ لأنَّ لسلامة هذه الأعضاء علاقة ما بالعمل في مصنع الغزل والنسيج، ولكن ما لن يتفهمه وجود علاقة بين سلامة الأسنان والعمل في هذه الشركة، إذ لا أتوقَّع أن يحتاج إلى مهارة استخدام الأسنان في هذا المصنع، ولكن يبدو أنه كنت مخطئاً في ظنه هذا، لقد عرف الآن أهميَّة هذا الكشف في الحجرة المجاورة عند طبيب الأسنان، والذي انخرط في عمليَّة الكشف على أسنانه بكلِّ حماس، يبدو أنَّ هذا الطبيب يحبُّ عمله بالفعل، وربَّما مرَّ عليه وقت طويل لم يمارس فيها هذه الهواية المفضلة، وقد صار يذرع بنوره الساطع ردهات فمه، ويتبختر بين صفوف أسنانه وأضراسه، ليتوقف بين الفينة والأخرى عند سنٍّ أو ضرس ما، حتى توقَّف عند ضرس بعينه، وحينها عرف إياد أنَّه قد وجد شيئاً يستحق الوقوف عنده، لقد وجد ضرسه الذي بدأ السوس بالنخر فيه، نقر عليه نقرة خفيفة ثم ابتسم وهو يقول:

لديك ضرس متآكل وعليك خلعه فوراً.

هذا الطبيب يبالغ قليلاً، فضرسه قد أصابه التسوس فعلاً، ولكنه ليس متآكلاً تماماً كما يقول، فلا هو يؤلمه فعلاً، ولا تسيل الدماء من جذوره أبداً، يبدو أنه كان مغالياً في تقدير خبرة هذا الطبيب، هاهو يخيِّب ظنه فيه إذ يذهب إلى الخيار الأخير خيار الخلع، وقد قال إياد محتجًّا:

هذا الضرس الذي تصرُّ على خلعه كان على هذه الحال منذ العام الماضي، ومع ذلك لم يؤثِّر وجوده على معدلات الإنتاج في المصنع، كما أن خيوط النسيج لم تعلق يوماً به، فما الداعي إلى خلعه الآن؟ ألا توجد خيارات أخرى؟

يبدو أنَّه كان يتوقَّع ذلك فقد تفضَّل بإعطائه محاضرة عن صحة الأسنان، وفاتورة العلاج الغالية، وضرورة خفض الإنفاق للارتقاء بمعدلات الإنتاج، وعن ارتفاع كلفة التأمين الصحيِّ، ومعاناة الدولة في

FOR AUTHOR USE ONLY

توفير النقد الأجنبي، ليختم تلك المحاضرة بضرورة خلع هذا الضرس الآن. لم تقنع تلك المحاضرة القيِّمة إياد، ومازال متردِّداً في تسليم أمره له، وقد لا حظ تردّده فقال:

إنَّه مجرد ضرس لا غير، فكِّر في الأمر برويَّة، أمامك وظيفة في متناول يدك قد تضيع منك، قليلون هم الذين اجتازوا المقابلة، وقلَّة منهم الذين اجتازوا الكشف الطبيّ، ليس أمامنا النهار بكامله، يمكنك الانصراف لو أردت.

لقد لمس وتراً حسَّاساً، لا يمكنني أن يفقد هذه الوظيفة، فهو في حاجة إليها، وخاصة أنه يتجهز للزواج من خطيبته سهير الزيَّات،لذلك فتح فمه في خضوع تام، وشرع في معالجة الضرس بسرعة قبل سريان المخدِّر به، ربما يخشى أن يتراجع عن هذا الخلع، وقد آلمته طريقة معالجته للضرس، فبدأ يلعن الدولة التي تخفض نسبة الصحة في الميزانية عاماً بعد عام، والشركة التي تتقشَّف في الإنفاق على صحة العامل للارتقاء بمعدلات الإنتاج، وأطباء الأسنان الذين يفضلون ممارسة هوايتهم المفضلة والمؤلمة في مثل هذا الركن المنزوي من فمه، ولم يوقف سيل اللعنات إلَّا قوله:

لقد انتهيت.

قال ذلك وهو يلف الضرس في منديل أبيض بعد أن فرغ من خياطة الجرح، تناوله إياد وهو يحسُّ بوخز الضمير، لم يؤلمه هذا الضرس يوماً ما، ولم يكن في حاجة لخلعه لولا حاجته الماسَّة إلى هذه الوظيفة، يمكنه أن يحصل على الوظيفة الآن، ولكنني لم يعد متحمِّساً لنيلها، بدأ الإحساس بالخزي يتملَّكه، فهل خلع هذا الطبيب ضرسي فحسب؟ لا يعتقد هذا بل خلع معه كرامته واعتداده بنفسه أيضاً.

FOR AUTHOR USE ONLY

الأسير

أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة صباحاً، وكلُّ شيء ساكن في معبر أبي سالم، وقد استسلمت الدوريَّة للنوم إلَّا فرداً واحداً بدا مستيقظاً، ورشاشه يتمايل في يده، وجسده مثقل بالنعاس، ولولا الخوف على نفسه أولاً وزملائه النائمين ثانياً لاستسلم لهذا الخدر اللذيذ الذي يداعب عينيه، تمنى لو تنقضي بقيَّة هذه الليلة بسلام، ففي الغد سيكون عيده وعيد زملائه، وكيف لا يكون الغد عيداً لهم وهم سيغادرون خطوط التماس مع العدو، ويعودون إلى تل أبيب حيث الدفء والنساء والحياة المترعة بكلِّ أصناف المباهج، كلُّ هذا تفصلهم عنها ساعات، ساعات ويغادرون هذه المنطقة المشئومة إلى الأبد، لم يكن يحلم في أسوء كوابيسه أن يجد نفسه هنا، حيث هؤلاء البشر الذين لا يمكن للإنسان أن يطيق نظراتهم القاسية، والتي تشي بحقد دفين تجاه كلِّ ما هو إسرائيلي، وعلى الرغم من عجزهم واستسلامهم الظاهرَين لا يمكن للإنسان أن يأمن شرَّهم، أو ينبَّأ بدرجة حدَّة ردود أفعالهم، فقد ينتفضون في كلِّ لحظة ليصبحوا بركاناً يصعب السيطرة عليه، والأخطر أن تجد نفسك مرغماً على الاقتراب منهم، فعلى الرغم من العداوة المتجذرة في نفوسهم إلَّا إنَّهم لا يمكنهم الاستغناء عن إسرائيل في سبيل الحصول على لقمة العيش، ولا إسرائيل يمكنها الاستغناء عن تلك العمالة الرخيصة في سبيل توطيد بنيتها التحتيَّة، فمن يرى هذا التعاون الذي تحكمه قوانين المصالح المشتركة بين الشعبين يحسب أنَّهما يعيشان معاً في سلام، إلَّا إنَّ هذا مؤشر مضلِّل في ذلك، فكلٌ منهما يدرك أن الحياة الحقيقيَّة تبدأ بعد أن يفني الآخر ويلقي به في البحر، وأن هذا التعاون مجرد أمر واقع أملته الظروف، وشرع له الواقع قوانين تحدِّ حدوده وتنظم آلياته، وسيستمر عقب فترات متقطِّعة يعلن فيها أحد الطرفين أنَّ الوقت قد حان للمواجهة، وهي مواجهة تكلف ديفيد وزملائه حياتهم، بينما يعقد المسئولون في تل أبيب مؤتمراتهم الصحفيَّة في الصالات المغلقة عن ضرورة استمرار الحرب حتى تستسلم حماس، وعلى ذكر حماس انتفض جسد ديفيد بعنف كأنَّ تياراً كهربائيًّا يسري في دمه، وقد راوده الشكُّ بأنَّه قد سمع حركة خفيفة لا يدري مصدرها، التفت حوله متفحِّصاً، ولم يبصر شيئاً مريباً، فكَّر في أن يوقظ زملائه ولكنه خشى من سخريتهم منه إذا لم يجدوا شيئاً مخيفاً، وسينعتونه بالجبن، ولا يمكنه أن يقبل بهذا وخاصة أنَّه سيعود بعد ساعات إلى تل أبيب، فالكل سيحكي عن بطولاته وأمجاده، وهذا ما سيفعله هو، ولن يسمح لأحدهم بتلويث هذا التاريخ الناصع الذي صنعه من تقطير مزيج غال من الأرق والتوتر والقلق والاكتئاب، لكلِّ هذا عليه أن يتأكَّد من الأمر بنفسه، وعليه أن يكون يقظاً، وقد شرع بالفعل في مباشرة ذلك.

FOR AUTHOR USE ONLY

وخلف أكمة صغيرة على بعد مئة متر من الدوريَّة تحركت الأرض ببطء كبطن حامل في الشهر التاسع يعبث فيها جنين نشط الحركة، وبدأت قشرتها تتفطر كأنَّ هزة ارتدادية لزلزال سابق تتلاعب بمكوناتها الجيولوجية، وثمة غطاء له صرير مكتوم يرفع ببطء، لتخرج منه ثلاثة عفاريت سوداء تتسلل بهدوء في ثلاثة اتجاهات على شكل مروحة عملاقة، وقد سُحِب الغطاء من الداخل، وعادت الأرض على ما كانت عليه. وحركة سحب الغطاء هي التي سمعها ديفيد ولكنه لم يصدِّق أذنيه، وإذا به يحسُّ بقشعريرة مفاجئة تعتري ظهره، وإحساس بأنَّ خطراً يقف بجواره، فالتفت وجسده يرتجف ليجد شبحاً أسود خلفه مباشرة، ويد الشبح تغلق فيه بشدة، بينما تمسك يده الأخرى بآلة حادة يوشك أن يخترق نصلها عنقه، لوهلة حسب ديفيد أنَّه في كابوس سيستيقظ منه في النهاية، ولكن يبدو أنَّه كابوس حقيقيٌّ، ولا سبيل إلى الاستيقاظ منه، لأنَّه مستيقظ بالفعل، والشبح يهمس في إذنه بعبريَّة ذات فحيح هامس:

– إيَّاك والمقاومة لو أردت أن تعود لأمِّك بسلام.

لم يعد ديفيد يصدِّق أذنيه وبصره، كما لم يعد متأكِّداً من أنَّه يعيش هذه اللحظة بالذات، لحظة الوقوع في الأسر، في وقت كان يمنِّي نفسه بالعودة إلى الديار بالنصر وأكاليل الغار، كلُّ هذا قد تبخَّر ولا أمل في نيله بعد الآن، أغضبه هذا وحاول أن يتذمَّر، ولكن نصل السكين الحاد صار أكثر غضبا وحدَّة وهو يتوغَّل ببطء في جلدة عنقه مخلِّفاً شريطاً مؤلماً وقد كشط خزعة رقيقة من جلده كدليل على جديَّة التهديد، يبدو أنَّ هذا الشبح لا يعبث، فهو جادٌ في تنفيذ وعيده، وقد همَّ ديفيد بفعل أي شيء، أو حتى أن يطلق صيحة استغاثة، ولكنه تذكَّر برتوكول (هنيبعل)، ولا شكَّ أن زملاءه يتذكَّرونه جيِّداً، وقد آلامه هذا الخاطر وحزَّ في نفسه أن يكون رفقاء الدرب والسلاح على استعداد تامّ لقتله مع آسره بدلاً من الوقوع في الأسر، فجنديٌّ ميت أفضل بكثير من جنديٌّ حيٌّ في قبضة يد العدو، هذا ما كانوا يلقنونه لهم دوماً، لكلِّ هذا استسلم ديفيد لمصيره، والشبح يتراجع به بهدوء يُحسَد عليه حتى تلاشوا خلف الأكمة، وتلاشت معهما أي فرصة للإفلات من الأسر، وغداً سيستعرض زملاؤه عضلاتهم ويمشطون المنطقة، وربما تتوغل كتيبة مصحوبة بغطاء جويٌّ في أراضي القطاع بحثاً عن الجندي المختطف ديفيد.

FOR AUTHOR USE ONLY

السقوط

انتصف الليل أو كاد وظلامه يجثم على صدر القطاع فيستسلم له بخضوع، ولا شيء يتحرك أو يصدر صوتاً باستثناء كلاب تتغزل على طريقتها الخاصة، وقطتان تتشاجران على قطعة لحم مجهولة المصدر، وحمار ينهق وقد أبصر سرباً من الجنون يمرُّ على مقربة منه، وديك انتفض مذعوراً وقد حسب أنَّ الفجر قد أدركه وهو لم يؤذِّن بعد، فيطلق صياحاً عبث التردد بمقاطعه فيخرج واهناً مشتَّتاً. وثمَّت سيارة تنهب الأرض مطفأة المصابيح ، يجلس خلف مقودها رجل ضخم البنية، يرتدي قناعاً أسود، وعلى المقعد الخلفي جلس رجلان لا يقلَّان ضخامة عنه، تتلصص أعينهما عبر القناعين السوداويين، وقد التفتا إلى شخص مكبَّل يجلس بينهما، ويتهامسان بكلمات لا يفهمها الرجل المكبَّل، وحتى إن فهم ما يقولانه فلا يمكنه أن يشاركهما الحديث وشريط لاصق مشدود على فيه، يكاد يكتِّم أنفاسه، كما لا يمكنه تبيُّن ملامحهما وعصابة قويَّة- شدَّت على عينيه – تحول دون ذلك.

تترك السيارة الطريق الساحلي، وتدلف بهم إلى طريق جانبي، ثمَّ تتوقف في مكان ما، يهبط منها الرجلان يقتادان أسيرهما إلى بقايا منزل متهدِّم، يزيح أحدهما بعض أنقاض المنزل المتهدِّم، ثمَّ يشرعون في الهبوط عبر فتحة حرجة الحواف، وتستقر أقدامهم على الأرض، فينحني الرجلان، ويجبر انحناؤهما أسيرهما على الانحناء، ويلتصقان بصفيح بارد، فيفتح لهما باب يدلف منه الجميع وقاماتهم منبسطة، وعلى بعد خطوات من باب النفق فُتِح باب حديدي آخر، دفع الرجلان أسيرهما فيه، ثمَّ أغلقا الباب عليه ومفصلاته تصدر صريراً عالياً يمزِّق صمت المكان وإن كان يبدِّد توحشه.

ولاحقاً صار إياد يألف المكان برطوبته الخانقة وبعوضه المزعج، ونسيم البحر يتسرب إلى محبسه في فترات متباعدة فينعش أمله في فرص البقاء على قيد الحياة، ثم يُنقَّص هذا الأمل عندما يتذكَّر اعترافه بكلِّ جرائمه، وكيف أنَّه يشعر بالخزي والعار أن تختم حياته بعقوبة الإعدام على جريمة الخيانة العظمى، لا يدري كيف سقط في فخ الجاسوسية وهو سليل أسرة مقاومة موغلة الجذور في هذه الأرض التي ارتوت بدماء أجداده، ولا يزال يتذكَّر بطولات جده وأبيه يتناقلها الرواة في المدينة، كما لا يزال يتذكَّر ذلك اليوم الذي قرَّر فيه أن يفتح باباً خفيَّاً للتعامل مع العدو، ولكن الأمر لم يكن كما يبدو على حقيقته كما هو الآن، نعم لم يكن الأمر بهذا الوضوح في ذلك النهار الصيفي الغائط، وذلك لأنَّه حينها كان مشوَّش الفكر وحانقاً على نفسه وعلى والمجتمع، والإحساس بالعجز والقهر وانعدام الكرامة ينخر في عزمه وإحساسه بالانتماء لهذه الأرض.

FOR AUTHOR USE ONLY

تربَّعت الشمس في كبد السماء وسياطها الحارة تلهب ظهور جموع المحتشدين على الجانب الفلسطيني من معبر رفح الحدودي، فتزيد من حنقهم وغضبهم، يترجم ذلك عبر سيل من الشتائم وعبارات الوعيد لموظفي المعبر والسلطة التي يمثلونها، ويتخلل حالة الحنق هذه عبارات استجداء واستعطاف المرضى وذويهم لموظفي المعبر، ويمنّي الكل نفسه بظهور ختم هذا الموظف على جوازه للعبور إلى الجانب الآخر، بينما يبدو الموظف كصنم عتيق متهالك يعجز عن مدِّ يد العون لعابديه، إذ إنَّ الأمر ليس بيده، وإنما هو ومن معه أدوات لتنفيذ أوامر السلطة. وقد توسط إياد جموع الغاضبين يشتم ويلعن حيناً، ويستجدي ويتلطَّف أحياناً أخرى، ثم يعود إلى سيارة الإسعاف ليلقي نظرة على أم جمال، فيرى حالتها تزداد سوء فيزيد ذلك من حنقه، فيخرج هائجاً:

من إي بشر أنتم لا تخافون الله ولا ترحمون عباده؟ ماذا فعلنا لكم حتى تعاملونا بهذه الطريقة المهينة؟

فيهدئ صديقه علاء من روعه:

صبراً أخي لا تقلق ولا تغضب. غداً سيفتح المعبر.. وستخرج أم جمال وتتلقى العلاج.. وتستعيد عافيتها.

على الرغم من أنَّه لا يصدِّق حرفاً مما يقوله صديقه جمال، إلّا إنَّ عباراته سرَّت عنه، فأشعلت رغبته في الحديث:

أتمنى ذلك يا علاء. ولكنك تعلم أنني قدمت ورق أم جمال في كشف فتح ولم ينفع. كما جربت كشف حماس وكانت النتيجة ذاتها. والآن لنا شهر ونحن نرابط هنا. كملت كل النقود التي عندي.

– هوَّن على نفسك يا أخي. كل شيء وليه دوره. سيأتي هذا الدور قريباً.

وقد صار إياد يشكُّ في مجيء دورهم في العبور، كما يخالجه اليأس من شفاء أم جمال من التهاب الكبد الوبائي، وها هي بطنها تتكوَّر أمامها متصلِّبة كحامل في شهرها التاسع، وجسدها يذبل شيئاً فشيئاً، وقد أوشكت جذوة حياتها على الانطفاء، ولو أنَّ هؤلاء القساة سمحوا لها بالعبور ربما لأنقذها الطب الحديث، فقد رأى حالات مماثلة وأكثر سوء من حالتها تتحسَّن وتستجيب للعلاج، ولكن كيف السبيل إلى العلاج وهذا الحاجز الخرساني عديم القلب يفتح ذراعيه لمرور البهائم والبضائع أكثر مما يسمح بمرور البشر، يبدو أنَّ الترتيب المعتمد للمخلوقات في المعبر هو: حيوان، جماد، إنسان.

أصدرت أمّ جمال سعالاً حاداً وهي تهتف باسمه، فأقبل نحوها، وقد خرج صوتها واهناً مشوَّشاً كأنَّه صادر عن مذياع شارفت بطاريته على النفاد:

FOR AUTHOR USE ONLY

– نرجع. لا أريد أن أموت هنا. أريد أن أموت في بيتي.

فيحتضنها وهو ينتحب:

– بعد الشر عليك. قد أتى دورنا. سنخرج وستتشفي يا أمي.

ويبدو أنها لم تسمع حرفاً مما قال، وهي تردد قولها:

– نرجع. لا أريد أن أموت هنا. أريد أن أموت في بيتي.

يبدو أنَّها لم تسمع ما قاله إياد، وربما لم تصدِّق منه حرفاً، لذا تكرِّر هذا الكلام الذي يقطِّع فؤاد إياد، ولها الحق في ذلك فهذه هي المرة الحادية والثلاثون التي يقضون فيها جلَّ يومهم مرابطين أمام المعبر، وقد أرهقتها هذه الرحلات اليوميَّة المملَّة، وأمام إصرارها وخشيته من غضبها عليه عاد إياد بها إلى المدينة.

وفي طريق العودة كان صديقه علاء يسرِّي عنه بالحديث:

– فتح تستخرج تصاريح لأصحابها. وحماس تأتي بقوائم طويلة تقول عنها أنها للكل. ولكن هي أيضاً تستخرج تصاريح لأصحابها. هذا أبوه شهيد. وهذه ولدها أسير. دعني أسألك: من هذا الذي ليس أبوه شهيداً ولا أخوه أسيراً.

– إذاً أم جمال تبقى أم الشهداء وبنتهم وزوجة أحدهم. بهذه الحجة أم جمال تستحق أن تخرج وتعود يومياً.

– برأيي أنو الأسرى درجات والشهداء مثلهم. لن ينفع أن يكون أسيراً ولا شهيداً ولا ينتمي لواحدة من الفرقتين. عليه التسجيل أولاً عند فتح أو حماس قبل أن يستشهد أو يقع في الأسر.

وبدا كلام صديقه يزيد حنقه أكثر مما يسرِّي عنه، هل يتعمَّد علاء هذا أم يفعل هذا من غير قصد، ولكن ألا يكون كلامه هذا منطقيًّا، وها هو يرى الانقسام ينكِّد حياة الفلسطينيين، وحالة الاستقطاب الحاد تجعل منهم شعبين فتحاويًّاً وحمساويًّاً لا شعباً فلسطينياً واحداً، ولكلٍّ منهما حججه وأدلَّته على أنَّه محق والآخر على خطأ، ومن الصعب معرفة أيّهما المحق من المخطئ وقد اختلطت الأسباب بالنتائج، ولكن ما يبدو واضحاً أنَّ الوضع يزداد سوء هنا، والحصار الخانق يوقر الصدور، والنفوس الحانقة تقلي وتوشك على الانفجار، لا غذاء لا مأوى لا صحة لا تعليم، من المستحيل أن يحتفظ الإنسان بهدوء أعصابه في هذه الأوضاع المتردِّية. طافت كلُّ هذه الخواطر برأس إياد فزادته حنقاً على كلِّ شيء ويأساً من كلِّ شيء، من الصعب أن يتفاءل الإنسان أو يحتفظ بمعنويات عالية في هذا النفق المظلم من العالم والمسمَّى بقطاع غزَّة.

FOR AUTHOR USE ONLY

****

جلس إياد أمام شاب أشقر يقاربه في العمر، تبدو عليه دلائل الدعة والراحة، وقسمات وجه الوسيم تغري بالتأمل، لو أنَّ لهذا الشاب أختاً فلا شك أنَّها ستجد صعوبة في التفوق على جماله الأخاذ، كما ستتسارع أنفاسها في سبيل الاقتراب من تقليد حركاته التي تدلُّ على الليونة الزائدة التي ترقص أطرافه، وصوته ذو الرنَّة الحادة يشكِّك في بلوغه مبلغ الرجال. وشرع الشاب يصوِّب نظراته إلى عيني إياد مباشرة وكان هذا أمراً مستغرباً منه، إذ لم يتوقَّع إياد أن يكون هذا الشاب بكلِّ هذه النعومة الزائدة ويتمتَّع بعيني نسر جارح، لوهلة اضطرب إياد أمام تلك النظرات الحادَّة، ثم تمالك رباطة جأشه، وبدأ يحدِّق في عيني الفتى، فبدا الأمر كتحدٍّ في مباراة من مباريات بطولة التحديق العالمي، لو أنَّ شيئاً كهذا كان موجوداً، وقد وجد في البداية صعوبة في ذلك، وهو يكتفي بدور الدفاع، ويصدُّ نظرات الفتى، وهو يقول له بعربية مغتصبة كأشياء أخرى تمَّ اغتصابها:

– كيف حالك يا إياد.

قال ذلك ولم يرفع عينيه عن إياد، وإياد يرد نظراته وعلى سؤله: بخير.

– وكيف حال أم جمال.

فاستفزَّ هذا السؤال إياد، من إين لهذا المائع أن يعرف أم جمال حتى يسأل عن حالها؟ وقد همَّ بأن يقلب الطاولة على رأس هذا المخنَّث لولا أن تمالك نفسه بصعوبة، وقد تذكَّر أنَّه هو ومن سعى إلى هذه المقابلة ولم يسعوا هم للقائه، فعليه أن يكون أكثر تعقُّلاً حتى ينال ما يريد، إلَّا أنَّ كلَّ هذا لم يمنعه من أن تحمرَّ عيناه غضباً، وكان لهذا أثره البالغ على تحويل مجرى مباراة التحديق، وقد انتقل من طور الدفاع إلى طور الهجوم، وعينا الشاب تطرفان بسرعة واضطراب واضحين، وأحسَّ إياد بالشعور بالفخر يتردد في ردهات صدره، والشاب يتقزَّم في ناظريه، وبدا صوته واهناً متردداً وهو يحدِّث إياد عن ضرورة السلام للشعبين الإسرائيلي والفلسطيني، وأنَّ أرض فلسطين تسع الجميع لولا أنَّ بعض المتطرفين هنا وهنالك يحولون دون ذلك، وأنَّ هذا السلام يحتاج إلى معلومات عن الذين يعكرون صفوه.

في الوقت الذي كان يتفاوض فيه إياد مع إيزاك جلس ثلاثة رجال أمام شاشة المراقبة في بيت قريب من الكافتريا التي يجرى فيها اللقاء بينهما، وكان باراك أكثر الرجال سعادة، وقد بدا كأم عروس تشهد عرس بنتها البكر، وكيف لا يكون سعيداً وها هو تلميذه إيزاك يطبِّق ما علَّمه له باحترافية معقولة، وإن شابت خطواته بعض الأخطاء الخطرة، فهو مثلاً يركِّز نظراته على وجه إياد، ولا يوزِّع

FOR AUTHOR USE ONLY

نظراته على قدمي إياد ويديه، وأحيانا يطأطئ رأسه في حياء واضح، وعدم التركيز الجيد على كلِّ حركات العميل قد يكون مصدر خطر في مثل هذه اللقاءات، ولكن مع ذلك يمكن غفران مثل هذه الأخطاء، فهذه هي المرَّة الأولى له، وما يطمئن أكثر أنَّ باراك قد تفحَّص ملف إياد جيداً بنفسه، ومعلوماته لا تشي بخطورته، فهو مجرَّد إنسان حانق من الوضع في القطاع، ويرى أنَّ سلطتي فتح وحماس هما السبب في شقائه وتعقيد حياته، ومع ذلك قد أعدَّ باراك للأمر عدَّته لو حدثت تطورات غير متوقَّعة، فهنالك فريق تدخُّل على أهبة الاستعداد لإنقاذ الموقف، فذلك النادل الذي يحرص على المرور خلف إياد بمبرِّر وبدون مبرِّر يراقب الوضع عن كثب، وذلك الساقي خلف البار والذي يضع سماعة بلوتوث على إذنه اليسرى يستمع إلى كلِّ كلمة من الحوار الدائر بين إياد وإيزاك، وهو قنَّاص ماهر يمكنه أن يردي إياد من موضعه هذا بكلِّ دقة وسرعة، فضلاً عن أنَّ بلاط الكافتريا أسفل مقعد إياد يمكن التحكم فيه آلياً، فينزلق إلى فخ منصوب بعناية أسفله.

لم يصدِّق إياد حرفاً مما يقوله هذا الإسرائيلي، ولولا الظروف الصحيَّة لأم جمال لما اجتمع في مكان ما مع شخص كهذا، ناهيك من أن يتحدَّث معه، ويقنعه بما يقوله، لم يتوقَّع إياد أن ينحدر يوماً إلى هذه الدرجة من السفالة التي تجعله ينسِّق مع العدو، وعلى ذكر التنسيق يتذكَّر أنَّ السلطة الفلسطينيَّة تنسِّق بطريقة مباشرة مع العدو ولا أحد فوَّضها بذلك، وأنَّ حماساً تتفاوض وتعقد صفقات تبادل الأسرى مع العدو بوساطة دوليَّة وإقليميَّة، ولا أحد من الشعب الفلسطيني فوَّضها للقيام بذلك، إذاً الكل ينسِّق ويفاوض ويعقد الصفقات تحت شعار المصلحة العليا للقضية الفلسطينية، فما الذي يمنعه هو من التنسيق والتفاوض وعقد الصفقات؟ صحيح أنَّه ليس عضواً في لجنة مفاوضات مكلَّفة بالتفاوض من سلطة وطنية منبثقة عن اتفاقيَّة دوليَّة، وكذلك لن تحظى صفقته واتفاقيته برعاية جهات دوليَّة أو إقليميَّة، إلَّا أنَّه ابن هذا الشعب، وقد اكتوى بنيران حروبه وخطوبه، ومن حقِّه أيضاً أن يكون له نصيب في تلك التفاهمات التي تتمُّ بين الفينة والأخرى، وبما أنَّ مرض أم جمال لا يحقِّق أيَّ مصلحة عليا للقضيَّة الفلسطينيَّة، فكذلك أيضاً علاجها لن يضرُّ جوهر القضيَّة بشيء، ثمَّ أنَّه بعد أن ينال ما يريد لا شيء سيجبره على التعاون معهم. وقد بدا له منطقه قويَّاً لا يتطرَّق إليه الشك والضعف، وبينما هو سادر في هذه الخواطر والأفكار سمع بعضاً من حديث إيزاك عن الدولة الفلسطينية في أراضي ١٩٦٧م، وشيء عن قضايا الحل النهائي، وعن ميناء ومطار دولي لقطاع غزَّة، وإشراف الأردن على المسجد الأقصى، وعن أهميَّة تبادل المعلومات اللوجستيَّة، لا يدري كيف يربط إيزاك بين كلُّ هذه

FOR AUTHOR USE ONLY

القضايا وبين ضرورة تعاونه معهم، ولكن ما يهمَّه الآن هو عقد صفقة تسمح بعلاج أم جمال وهذا ما حصل عليه، وعليه أن يؤجِّل مناقشة هذه القضايا إلى مراحل أخرى إن كانت هنالك مراحل أخرى بينهما.

وما لم يعلمه إياد آنذاك ما كان يجري على مقربة منه، اجتماع يقرر كلَّ شيء بشأنه، وفي البيت الآمن يبدي الرجلان الآخران امتعاضهما من الطريقة التي يجري بها اللقاء، فلم يكن أداء إيزاك مقنعاً، ولولا أنَّ هذا العميل يمرُّ بوضع سيء هنالك، وهو على استعداد للتعاون تحت أيِّ مسمّىً كان لما تمكَّن إيزاك من إقناعه، كما أنَّ هذا العميل لو كان ذكيَّاً ويتلاعب بهم، أو لو أنَّ المعلومات عنه كانت مضلِّلة وهو أحد فدائي كتائب القسام، لكانت حياة إيزاك في خبر كان، ولن تفلح كلُّ تدابير الأمان والتدخل السريع في إنقاذه، ولأمثال هؤلاء العملاء تاريخ حافل بقتل الكاتسا في أوضاع أكثر تأميناً من هذا الوضع. وقد وصف باراك زميليه بأنهما مصابان بوسواس مرضيٍّ، فهما يشكَّان في كلِّ شيء، صحيح أنَّ الشك والحذر سمتان غالبتان على طبيعة عملهم، ولكن الغرق في محيط عاصف من الشك يصعب الإبحار فيه ليس أمراً جيداً، فتشكُّك كهذا يضرُّ بالعمل أكثر مما يفيده، ونصحهما بالتركيز على الجانب الجيِّد من هذا اللقاء، فأنَّهم كسبوا عميلاً، واكتسب ضابطهم الناشئ خبرة عمليَّة، وأنَّ العمليَّة مرَّت بسلام وهدوء وهذا هو المهمُّ أولاً وأخيراً.

وقد حصل إياد على ما أراد، وسمح له بالعبور عبر معبر بيت حانون، وعلى الرغم من تعرَّضه لمضايقات من الإسرائيليين، وتعمدهم إذلاله هو وأم جمال، وقد أجبرا على السير على الأقدام من الجانب الفلسطيني للمعبر إلى الجانب الآخر منه، فضلاً عن تعرّضهما للتفتيش الذاتيِّ، هذا على الرغم من تردِّي الحالة الصحيَّة لأم جمال، وبطن أم جمال بارز أمامها بصورة تثير الشك في نفس أقل الجنود تشكُّكاً. وهنالك في مستشفى الشفاء في عمَّان بدأت أم جمال تستجيب للعلاج، وبطنها يتراجع إلى حجم معقول كحمل كاذب تمَّ الكشف عنه قريباً، فذاب تحت شعور صاحبته بالخيبة والإخفاق، وفي الوقت الذي كانت فيه أم جمال تتماثل للشفاء كان هنالك ثمة أصدقاء يزورونه فيستأذنها في الخروج معهم، فتأذن له وقد أحسَّت بدبيب العافية يسري في عروقها وأوصالها، وصار يعود ورائحة كرائحة التفاح العطن تفوح من فمه وترشح مع عرقه، ولولا أنَّها تعرف سلوك إياد جيَّدا وأنَّها ربته بيديها، ومن قبل أرضعته من ثدييها لشكَّت في أنَّه يعاقر الخمر.

FOR AUTHOR USE ONLY

وعقب عودتهم إلى القطاع بدأ إياد يشعر بشيء من الندم، وللإحساس بالذنب ووخزات كإبر حادة تخترق فؤاده، فيزيد أرقه، وينعكس هذا كلُّ على جسده الناحل فيكاد يفضحه، فكَّر أكثر من مرة في الاعتراف للسلطة وليفعلوا به ما يشاءوا، ولكن يتراجع في آخر لحظة لأنَّه يعلم أنَّ الأمر لن يتوقَّف عليه فحسب، بل سيتجاوزه ليسيء إلى سمعة أسرته وتاريخها الحافل بالبطولات والتضحيات، وليس من العدل أن يتلوث ذلك البحر النضالي ببقعة خيانة صغيرة صدرت من أحد أفراد جيله الثالث في ظروف لم تكن في صالحه، علم أنَّه لا أحد سيغفر له ذلك لا السلطة ولا أسرته، فلِمَ يعترف على نفسه وهو حتى الآن لم يتورَّط في شيء؟ ولم يطلب منه شيء يضرُّ أحداً بعد.

ونسي إياد الأمر شيئاً فشيئاً، والشعور بالندم يتراجع إلى حدود ضيقة، فلا يكاد يحسُّ به إلَّا في فترات متباعدة وعابرة، ومع تسارع الأيام بدأ إياد متيقناً من أنَّهم قد نسوه، أو أنَّهم قد ألغوا عمليَّة تجنيده من الأصل، وحسناً فعلوا ذلك لأنَّه لم يكن على الاستعداد على التعاون معهم، ولا أحد يملك إرغامه على فعل ما لا يريد فعله.

حتى رنَّ هاتف إياد ذات يوم فألقى نظرة على الشاشة وإذا برقم غريب يطالعه على الشاشة، أوشك إياد أن يتجاهله، فليس من عادته الاهتمام بتلقي مكالمات من أرقام غير مسجَّلة بسجل الهاتف، ولكن شيء من الفضول جعله يضغط على زر الإجابة، وإذا صوت عميق شبه آلي يخاطبه:

– سلام يا ود أم جمال..أخبارك وأمورك.

انتفض جسد إياد بعنف لأنَّه لا أحد يناديه بهذا الاسم إلَّا شخصاً واحداً، شخص لا يرغب في مكالمته أو لقائه، شخص حسب إياد أنَّه قد ضلل أثره منه منذ وقت بعيد، ويبدو أنَّه قد عاد يطارده من جديد، وانتزعه الصوت الشبه آليّ من شروده:

وهو يخبره بضرورة لقائه الآن، وإذا برجل يصطدم بإياد فيرفع إياد قبضته محاولاً ضربه، إلَّا أنَّ الرجل استمر في طريقه وقد همس له بأن يتبعه.

FOR AUTHOR USE ONLY

الساعات الأخيرة

هبَّ إياد من غفوته مذعوراً لصرير الباب الحديديِّ، لتقع عيناه على ملثمين يدفعان بشخص إلى داخل السجن، ثم يعودون من حيث أتوا، دفعه الفضول إلى الاقتراب من الضيف الجديد، وهو يتوقَّع أن يجد جاسوساً فلسطينيًا مثله، ما لم يطرق خياله أن يكون هذا الرفيق الجديد أسيراً إسرائيليًا، سرت رعشة خاطفة في قلبه، ثم تشظَّت أطرافها لتعمَّ سائر جسده لثوان معدودات، وكأنَّما أحسَّ بشيء من الفخر ونشوة النصر، يبدو أن الانتماء لهذه الأرض قد تجذَّر عميقاً في قلبه، وهو الذي كان يعتقد عن نفسه أنَّه قد تبرَّأ من هذه الأرض وأهلها عندما انخرط في سلك الجاسوسيَّة والتخابر مع العدو، شعر بشيء من الانبهار لمرأى هذا الجندي الإسرائيلي، على الرغم من أنَّ هذه ليست المرة الأولى التي تأسر فيها حماس جنديًا إسرائيليًاً، وعلى الرغم من أنَّه قد شارك في حملة البحث عن أسرى إسرائيليين من قبل، إلا أنَّها كانت محاولات فاشلة، ولم تنجح في اختراق الجدار السري الذي تحيط به حماس الأسرى، حتى أصبح البحث عن أسرى لدى حماس مضيعة للوقت والمال والجهد، والأفضل منه الانخراط في مساومة حماس على صفقة ما، لكلِّ هذا يحملق إياد في وجه هذا الجندي في انبهار تامٍّ، وإذا برعدة مفاجئة تسرى في جسد إياد كلِّه، وكأنَّ تياراً كهربائيًاً قويًاً يسري في شرايينه حتى يصل إلى قلبه فينتفض بعنف، بينما يتأرجح عقله على علامة استفهام كبرى تخلخل أعماقه، لِمَ سُمِحَ له برؤية هذا الأسير؟ ولم يجد عقله سوى إجابة يتيمة تتردَّد في دهاليزه، فيتردَّد صداها في ردهات قلبه، ألا وهي أنَّه أصبح في عداد الأموات، لا أحد يرى أسرى حماس ثم يعيش ليروي ذلك. يبدو أنَّه كان محقًّاً في ظنه، فهاهو الباب يفتح من جديد، ويدفعه ملثَّمان إلى خارج القبو، ومنه إلى سطح النفق، حيث تنتظرهم سيارة يدفعانه إليها ثم تنطلق بهما، وشمس يوليو الحارقة تجعل من السيارة سفوداً ضخماً يشوى عليه إياد وحارسيه والسائق.

توقفت بهم السيارة عند مبنى جوزات غزة، وإذا بجمع غفير في انتظارهم، يترجَّل إياد وحارساه من السيارة، وهو يتفرَّس في الوجوه الناقمة، وسرعان ما انطلقت عبارات السباب والتخوين من أفواه الجماهير، ولم يغضبه هذا السباب بل شعر بشيء من التوازن النفسي وهو يتخطى الجموع الغاضبة، ومن بين تلك الوجوه الغاضبة هنالك وجه نحيل تبدو دلائل الانكسار والقهر واضحة عليه، وتكشف عظامه الناتئة عن محجرين تتلألأ في عينيه دموع تقاوم رغبة صاحبها في الانحدار إلى أخدودين كالحين على بقايا خديِّن متغضِّنيْنِ، لو سمح لإياد للبقاء لساعة أخرى لقضاها في حضن صاحب هذا الوجه النحيل–

FOR AUTHOR USE ONLY

زوجته سهير الزيَّات، لم يعد يخشى من الموت ولكنه يشعر بالألم لن يتمكَّن من رؤية هذا الكائن الرقيق بعد، وما يؤلمه أكثر هذه النهاية المخزية التي ستعزف لحن ختام حياته، لمْ يكن محقاً عندما اعتقد أنَّه ليس لديه ما يخسره عندما سلك هذا الطريق، يبدو أنَّ لديه ما يخسره، سيخسر سهير الزيَّات.

طلب الإذن من مرافقيه لإلقاء تحيَّة الوداع على زوجته، فسمح له بذلك، ولم يخشَ من محاولة فراره، وقد انتشر أفراد الأمن خاص بزيِّهم وأقنعتهم السوداء المميَّزة، وقد نصبوا سياجاً أمنياً محكماً حول المكان، لا أحد يستطيع الفرار من هذا الطوق الأمنيِّ المحكم. اقترب إياد من زوجته بينما هي منخرطة في نحيب حار، وشريط الذكريات يعود بها إلى تلك الليلة التي قرَّرت فيها الارتباط بإياد إلى الأبد.

انتصف الليل أو كاد ومازالت سهير الزيَّات تتقلَّب في مضجعها ولم يطرق النوم جفنيها بعد، ربما ضلَّ النعاس في طريقه إليهما، أو ربما قد سئم من مداعبة هذين الجفنين اللذين استعصيا على كلِّ حيله وألاعيبه في دغدغتهما، فرحل مغاضباً عنهما، ولكن لو علم بما يختلج في صدر الفتاة من هموم لآثر البقاء إلى جانبها شفقة عليها، فهي في محنة تعجز عن الاهتداء إلى سبيل الخروج منها.

هذه الفتاة في ورطة نسجت يداها خيوطها بإحكام حول عنقها، والآن تعجز عن الخروج منها دون أن تفقد استقرارها وهدؤها النفسيين، سمعت من قبل كثيرا من القصص التي تتحدث عن الضمير وتأنيبه، وباستثناء وجود الضمائر في دروس النحو العربي لم تؤمن قط بوجود شيء اسمه الضمير خارج تلك الدروس، وما يحكى عنه من قصص عن صحوته ووخزاته لم يكن سوى خيال ووهم لم يخطر ببال سهير في حياتها من قبل. الآن تقرُّ بوجوده وقد اكتشفت مؤخراً أنَّها تملك واحداً بحالة جيِّدة على الرغم من أنَّه لم يُستخْدَم من قبل، كما أنَّها لا تعرف كيف تديره، لا تدري أتفرح بهذا أم تحزن، وفي الحقيقة لا تشعر بأيٍّ منهما، ولكنها تشعر بخوف مشوب بالقلق والتوتر، وقد حزمت أمرها واختارت إياداً على تؤمه زياد، وكان ذلك اختيار عن دراسة وتمحيص وقراءة لمجريات الأحداث والواقع الذي تمر به البلاد، وقد وجدت سهير نفسها في حيرة من أمرها في البداية، إذ لاقت صعوبة في الاختيار بينهما، زياد بوسامته الأخاذة، واندفاعه وحماسه الزائد في سبيل ما يؤمن به من أفكار، مع حنان وألفة لكل من تجمعه به صلة، وبين إياد بجسده الممشوق وحديثه الهادئ ذي النبرات الواثقة، وسحره الاجتماعي الطاغي، وكرمه الحاتمي، وكل منهما يؤثرها بحديثه ويبثها همومه وأشجانه، وكانت تجد تسلية في ذلك، ولم تعتقد أن يتطور الأمر ليطلباها للزواج كل على حده، ويعلمها كل منهما لوحده ودن علم الآخر، وهنا بدت الحاجة إلى نصب الموازين ضرورة، فالزواج استقرار ومستقبل وأبناء وبيت زوجية كما تقول أمها،

FOR AUTHOR USE ONLY

وهذه الأشياء تحتاج إلى (مصاري) كما يقولون، صحيح أنهما لا يملكان المال الكافي، ولكن إياد يملك وظيفة تدر عليه دخلاً لا بأس به، بينما زياد مازال موعوداً بوظيفة قد يحصل عليها وربما لا، وهذه نقطة تحسب لصالح إياد، وعلى الرغم من أنَّ وسامة زياد وحنانه الزائد صفتان مثاليتان لفتى أحلام كل فتاة، إلا أن هوسه المبالغ بقصص التضحية والفداء ومنابذة الأعداء يشغل حيزاً كبيراً من تفكيره، ليتسبب ذلك في تراجع ترتيب الحب ومتطلباته إلى آخر قائمة اهتماماته المستقبلية، وهو ترتيب لا يمكن أن تفخر به أي فتاة تملك قلباً بين جنبيها، وهذه نقطة تحتسب على زياد، لو كان الأمر بالتمني لتمنَّت أن يكون أحدهما جامعاً للصفات التي تعجبها في كلٍّ منهما، وبما أن الأمر ليس كذلك فهاهي تختار إياد على مضض، وتشعر بشيء من الرثاء والشفقة تجاه زياد لأنَّه كان واثقاً من أنَّها ستقبل به زوجاً، يبدو أنَّه قد خسر الرهان لأنَّه لم يعرف قواعد اللعبة جيداً، كما لم يعرف إمكانياته المتواضعة مقارنة بندِّه التقليدي وتؤمه إياد، ولكنها على ثقة من أنَّ زياداً سيتخطى هذه المحنة بقليل من البكاء والمخاط وإن كان سينكر ذلك لاحقاً، ولكنه في النهاية سيتقبَّل الأمر الواقع، وسيواجهه بما يملكه من قوة وشجاعة، فضلاً عن أنَّه شغوف بقصص التضحية والفداء، فقد آن له أن يلعب دوراً بطوليًّا بامتياز، وهذا اختبار حقيقي لإيمانه بتلك القصص والبطولات التي لا يسأم من ترديدها.

أحسَّت بشيء من الارتياح لوصولها إلى هذه النقطة، وقد انصرم الليل، وبدأ النعاس يداعب عينيها من على البعد، وهي تستسلم له في إغراء واضح، لولا أن خطر لها خاطر مفاجئ، ماذا لو اتفق الشقيقان على عدم الارتباط بأيٍّ منهما، وقد كشفا خدعها وألاعيبها، وبأيِّ وجه ستلاقي زياداً إذا تزوجت إياد وهما يقطنان البيت نفسه، وكيف ستسير الأمور بين الأخوين بعد الزواج من أحدهما، وهذا أمر يصعب التكهن به، فكَّرت في كلِّ ذلك، وهذا التفكير جعلها في موقف دفاعيٍّ، فهي لم تصرَّح لأيٍّ منهما بحبها له، فضلاً عن أنَّ الحب نفسه شيء لا تعترف به، فكلُّ ما كانت تشعر به أنها معجبة بصفات معيَّنة في كلٍّ منهما، وتجد متعة في كونها موضع اهتمامهما، ولم تعطِ أكثر من عبارات الإطراء والشكر على كلِّ منفعة تنالها من أحدهما، وحتى هذا الشكر والإطراء كان بقدر محدد حرصت على توزيعه بالتساوي بينهما، وهذا ما جعلها تحتفظ بهما معاً لوقت طويل، فإذا فسَّر أحدهما شيئاً من هذا بالحب فهذه مشكلة تخصه هو ولا تعنيها من قريب أو بعيد، ومن بعيد بدأ الصبح يلوح بمنديله الأبيض في الأفق، وارتخى جفنا سهير على عينيها فأحسَّت ببرودتهما على عينيها الملتهبتين.

FOR AUTHOR USE ONLY

هنا انحدرت الدموع الحارة من عينيها، وقد أحسَّت بشيء من الارتياح لذلك، وقد أطفأت الدموع إحساساً باللوعة يقلي في صدرها، فهي سعيدة لأنَّها أخيراً قد زفَّت لإياد، وإن كان ينقص هذه السعادة عدم شهود زياد يوم زفافها، لما فعلته به من قبل، ثم تتذكر إن هذه إرادة الله وعليها التسليم بقضاء الله وقدره.

استمرَّت سهير في النحيب وهي تصل إلى هذه النقطة من ذكرياتها، بينما إياد يحاول أن يهدِّئ من روعها، ويذكرها أن هذا قضاء الله وقدره، فقط عليها أن تسامحه على كلِّ ما سبَّبه لها من ألم، وتمنى من أعماق قلبه لو أنَّها لم تكن زوجته يوماً، فهي تستحق من هو خير منه.

دفعه الحارسان إلى منصة الإعدام وصيحات الرجال الغاضبة تلهب أذنيه، وذكر اسم عائلته مقروناً بلقب الجاسوس يزيد من ذله وانكساره، أحسَّ بالغضب يقلي الدم في عروقه، فتزداد نبضات قلبه، لا يهمَّه أن يعدم الآن أو في أي وقت لاحق، كما لا يقلِّل من فداحة الجرم الذي ارتكبه بحق هذه الأرض ولا يبرِّر له، ولكنه يكره هذه الطريقة المهينة التي يعامل بها اسمه العائلي، حمد الله كثيراً أنَّه لم ينجب ابناً، هذا على الرغم من أنَّه تمنى ذلك كثيراً وسعى له بكلِّ السبل، فلو كان له ابن اليوم لما وقف شامخاً في مبنى جوزات غزة الآن، تمنى إياد أن تنتهي هذه المسرحيَّة الآن وبأقصى سرعة، ولكن يبدو أن القوم يستمتعون بكلِّ مشهد من مشاهد هذه المسرحيَّة، فهاهو أحدهم يتلو صحيفة إجرامه بعد أن تلي آيات القصاص بينما يدفعه الحارسان إلى شاخص التنفيذ (المطخ) ثم قيَّداه بإحكام عليه، وقد حان وقت التنفيذ.

FOR AUTHOR USE ONLY

برزت مفرزة الإعدام واتخذت مواقعها أمام الشاخص، وقد صوَّب كلُّ فرد من أفرادها السبعة سلاحه على إياد، والكلُّ أصبعه على الزناد على أهبة الاستعداد للضغط عليه مع أول أمر يصدر بذلك، وفي منتصف تلك المفرزة انتصبت قامة مديدة لا تخطئها العين التي تعوَّدت على رؤيتها، كانت تلك قامة شخص ألفته عينا إياد وتعوَّدتا عليه لأكثر من ثلاثة عقود، تلك قامة زياد نبيل الدباغ أخوه وتؤمه، وهذا ما لا يخطئه قلبه إذا أخطأته عيناه، فسرت رعدة خفيفة في قلبه، وبدأ يحسُّ بشعور غريب هو مزيج من الارتياح وعدمه، فالارتياح لأنَّه سنحت له الفرصة للقاء أخيه قبل المغادرة، حتى وإن كان هذا اللقاء على البعد، لكم كان يتمنى في الشهور السابقة أن يلتقي به، ليوصيه خيراً بزوجته، فلا أحد يستأمنه عليها غيره، وعلى ذكر ذلك تذكَّر ما كان بينهما من منافسة في حبِّ سهير الزيات والفوز بقلبها، وهي منافسة انتهت لصالحه على الرغم من أنَّه يعلم أنَّه ليس الأفضل، ولكنه كان سعيداً بذلك

في حينه، وفجأة خطر له شعور سلبيٌّ تجاه أخيه، فهاهو يشارك في مفرزة إعدامه، بعد ثوان سيطلق الرصاص على قلبه، وهو الذي كان يتمنى لقاءه ليوصيه على أهله، يبدو أنَّه كان ساذجاً أكثر مما ينبغي، ويبدو أنَّ المنافسة على سهير الزيات لم تنته بينهما بعد، وإن كانت ستنتهي بعد قليل بانتصار ساحق لزياد، اهتز جسد إياد من فرط الانفعال والغضب، فأخرجه ألم قسوة الحبل –الذي يتلف بصدره– من هذا الدوامة السوداويَّة الذي عصفت بقلبه وعقله، ثاب إلى رشده وهو يعرف زياداً أكثر من نفسه، لا يمكن أن ينحدر زياد إلى الدرجة من السفالة، بل لا أحد يستطيع المزايدة على أخلاق زياد ونزاهته وعفته، إن كان لزياد عيب فهو حرصه الدائم على الالتزام بمبادئه مهما كانت الظروف ضده، وهذا ما يفعله الآن بكلِّ ثبات ونكران ذات يُحسَد عليهما، لهذا يقف هذه الوقفة الصلبة ويصوّب سلاحه إلى قلب أخيه وكأن الأمر لا يعنيه من قريب ولا بعيد. وقد وجد إياد أخاه محقَّاً ورحيماً في ذلك، لقد حان الوقت ليخلصه من كل العذاب الذي يجثم على قلبه من جراء خيانته ومشاركته في مقتل أبي مرزوق في ذلك اليوم.

اقتربت سيارة أبي مرزوق من إياد الذي بدأ مهموماً، حتى أنه لم ينتبه إلى توقف السيارة على بعد سنتيمترات عنه، الأمر الذي جعل أبي مرزوق يضغط على بوق التنبيه حتى التفت إياد مذعوراً، وأبو مرزوق يشير إليه بالصعود وهو يقول :

يبدو أنك لن تذهب إلى العمل اليوم!

صعد إياد على السيارة وجلس على المقعد الخلفي على غير العادة، وقد تعود على الجلوس على المقعد المجاور السائق، يبدو أن الأمور على غير ما يرام، وهذا ما لاحظه أبو مرزوق، من المستحيل أن تكون أمور إياد على ما يرام ووجه يبدو شاحباً كممسحة قديمة، لا يحتاج الأمر إلى خبير ليعرف أن هذا الجفن المتورم المحمر لم يغمض على عينه ليلة أمس، وبدافع الفضول بدأ أبو مرزوق يسأله عن حالته الصحية وأموره العائلية وأحواله المالية، وكل هذه الأسئلة المتنوعة لم تغر إياد بالبوح، ولم تفلح كل محاولات استنطاقه، يأتي وقت على الإنسان يكون أحوج ما يكون إليه فيه أن يترك وشأنه، ويبدو أن إياد يمر بذلك فعلاً، كان ذلك ما توصل إليه أبو مرزوق بعد كل المحاولات الفاشلة لاستنطاقه.

انعطفت السيارة يميناً، ثم وقفت أمام روضة الندى، فترجل أبو مرزوق وحفيدته، وهنا بدأ قلب إياد يدق بعنف كطبل أجوف تعبث به يد قاسية، لو لم يترجل أبو مرزوق من السيارة اسمع ذلك بوضوح، وقد كان إياد يمر بوضع نفسي متأزم، وقلبه متصدع بين ما هو مقدم عليه وبين ما يجب عليه فعلاً، لو مرة في حياته يفقد احترامه لنفسه، ويكتشف أنه خسيس وأناني، لم يتعود على الإساءة لمن يسيء إليه، فكيف سيطاوعه قلبه على الإساءة إلى من أحسن إليه، فكيف يمكنه أن يطاوعه على الإساءة إلى أبي

FOR AUTHOR USE ONLY

مرزوق وهو من هو، وجمائله على الحي والأسرة أكثر مما يمكن تعديده وإحصائه، لو لم يكن لهذا الرجل من جميل عليه سوى إيصاله بالسيارة في طريقه لكفاه عن الأحجام عن المشاركة في قتله! انتفض جسد إياد عند تفكيره في هذه النقطة، وقد علت جسده قشعريرة باردة وهو يسمع أبا مرزوق يقول لحفيدته: سأعود إليك لاحقاً كوني بخير يا صغيرتي.

يقول ذلك وهو يطبع قبلة حارة على خدها الصغير، فتلتصق به، لا يدرك هذا البائس أن هذا هو آخر عهده بالحياة، والمؤسف أن يكون هذا على يديه.انحدرت دمعة حرى على خده الأيسر، وأطلق تنهيدة مكتومة لم تتجاوز ردهات جوفه، وهو يشعر بمزيج كريه من الخوف والمرارة والندم يتحشرج في حلقه، لقد فضل الانتحار على الإقدام على قتل أبي مرزوق، ولكنه وجد نفسه جباناً لن يقوى على ذلك، الآن تأكد من أنه أناني ويفتقر إلى الشجاعة النادرة التي يتميز بها المنتحرون فيقدمون على قتل أنفسهم دون تردد، وبينما هو يتخبط في تردده إذ أقبل أبو مرزوق، فقرر أن يخبره بكل شيء وليكن ما يكون بعد ذلك، لولا أنه أحجم عن ذلك في آخر لحظة، وقد هاله المصير المظلم الذي سينظره لو كشف أمره، ربما لن تغفر له حماس ذلك، وماذا عن مصير زوجته وابنه القادم من رحم الغيب، وماذا عن تاريخ أسرته الناصع الخالد بمآثر التضحية والفداء، كل هذا سيصبح هباء، لذلك فليمت أبو مرزوق فهذا أهون، فهو ميت لا محالة، ولاشك أن الرجل مؤهل لذلك، من الصعب أن يعمل الشخص في المقاومة ويمني نفسه بميتة هادئة مريحة، ويظل الموت مشروب كريه المذاق مهما كانت أوعيته وأسبابه جذابة وناعمة، عند هذه النقطة وصل إلى ضرورة إكمال المهمة، وليسامحه أبو مرزوق، فقد تحتم عليه الاختيار بين حياته وحياة أبي مرزوق، ومن الطبيعي أن يختار حياته، وهو الشاب الغض الذي لم يعش في هذه الدنيا بما يكفي، ثمة طموحات لا بد من تحقيقها، وآمال يصبو إليها، وقد عاش أبو مرزوق وتمتع بما يكفي، ولا أظنه يطمع في المزيد، وبيد مرتعشة وعقل مشوش وقلب ينبض بعنف وعين دامعة ألصق إياد الشريحة الممغنطة على كرسي أبي مرزوق وهو يرتجف، وقد نظر إليه أبو مرزوق وأحسَّ بأنه في وضع غير معتادٍ، ولكن مع ذلك تجاهل أمره، حتى أنه لم يمازحه وهو يترجل من السيارة والأخير يلوح بيده مغادراً، ولم يبتعد أبو مرزوق قليلاً حتى سمع أياد دوي انفجار قوي، واهتزت الأرض تحت قدميه بعنف.

FOR AUTHOR USE ONLY

الرَّد

أقبل المساء طالياً بألقه الذهبيِّ جدران المباني، ونسيم عليل يشرح النفوس يتهادى بين طرق القطاع وأزقته، وقد تدفَّقت الجموع في الشوارع ، وصيحات النصر تتعالى من كلِّ مكان، لقد فعلتها حماس مجدداً، واقتلعت مخلباً غالياً من مخالب السبع، فها هو جندي آخر يسقط في قبضتها ولم يمرُّ عام على آخر صفقة أجرتها مع تل أبيب، وقد قبلت بها على مضض، فكيف ستكون ردَّة فعلها الآن، فها هي حماس تعلن اسم الجندي الأسير ونمرته العسكريَّة، ولا مجال الآن إلى المكابرة والإنكار، وقد بدأ الفلسطينيون يعدُّون قوائم الأسرى المطالب بالإفراج عنهم في الضفة الغربية والقطاع، بينما بدأت مسيرات الضغط على الحكومة في تل أبيب تطالبها بالبحث عن صفقة تعيد ديفيد إلى أهله وأصدقائه، ولم تعلِّق الحكومة على الأمر في البداية، وكم كانت تتمنى أن يكون الجندي ديفيد قتيلاً لا أسيراً، وكذلك لتفسح المجال للإجراءات العسكريَّة والأمنيَّة حتى تتحقق من ذلك، وتعمل على استعادته حيَّاً أو ميِّتاً، وبما أنَّ هذه الإجراءات العسكريَّة والأمنيَّة لم تحقِّق تقدماً يذكر قررت الحكومة إعلان أسر الجندي ديفيد، وأنَّها تعمل على استعادته بكلِّ السبل، وحذَّرت حماس من المساس به، متوعِّدة إيَّاها بالويل والثبور، وهو تهديد اعتاد عليه الفلسطينيون في القطاع، ودفعوا ثمنه مراراً وتكراراً، ولكن مع ذلك بدأ الترقب والخوف من المجهول يجدان طريقهما إلى قلوب أهالي القطاع في الوقت الذي بدأت فيه الطائرات بإلقاء المنشورات التي تطالب بإخلاء المنازل إيذاناً باجتياح بريٍّ وشيك.

FOR AUTHOR USE ONLY

ولم يدم هذا الترقُّب والتوجُّس طويلاً، مع تكبيرة الإحرام في مسجد بحي الأشجعيَّة انهمرت من سماء القطاع حمم القنابل العنقوديَّة، واختلط دويُّ القنابل بصراخ الأطفال والنساء وأصوات انهيارات المنازل، لقد شرعت إسرائيل في الرد سريعاً، كما لم تتردَّد فصائل المقاومة في إطلاق صواريخ القسام إلى عمق الأراضي المحتلة. وقبيل الفجر بقليل بدأت الدبابات الإسرائيليَّة تتوغل بهدوء وحذر وسط ثلة من الجنود المدججين وتحت غطاء جويٍّ كثيف من مروحيات الاباتشي التي تقصف كل ما يتحرك على ظهر الأرض، وبينما كانت أعمدة الدخان تتصاعد من بيوت الحي، كان شارع عمر المختار مكتظ بجموع الفارِّين من النساء والأطفال حاملي الأكياس البلاستيكيَّة السوداء وهم يتسللون من تلك البيوت التي لم تعد ملاذاً آمناً بعد، هذا في الوقت الذي انهمك فيه الجنود بدكِّ ما تبقى من جدرانها بقذائف الـ(آر-بي-جي)، ثم تغيَّرت الأمور سريعاً، وقد بدأت قذائف المورتر تنهال على الدبابات من كلِّ صوب وحدب، ليتشتت نظام الرتل العسكري في ثوان مع سقوط أوَّل قذيفة مورتر على إحدى الدبابات.

وعلى مقربة من ذلك الرتل العسكري استرق زياد النظر عبر الفراغات التي خلَّفتها القذائف على سور المنزل، فأبصر حاملة جند تمرُّ على مقربة من سور المنزل، تراجع برأسه إلى الداخل، وتراجع على إثره جهاد معرور في آلية واضحة، وبعد أن مرَّت ناقلة الجند أطلَّ زياد برأسه من فراغ بالسور، وأحسَّ بهواء الحريَّة يعبر من أنفه إلى صدره، فمنحه ذلك دافعاً قوياً للخروج، أخرج نصف جسده عبر الفتحة بينما ناقلة جند مسرعة نحوه من الطريق المقابل، وجد زياد أنَّ الرهبة تزلزل كيانه، وخدر لذيذ يسري في خلايا جسمه وهو يعبر الفتحة، لا يدري إن كان متردِّداً فحسب، أم أنَّه الخوف وكهربائه الساكنة هي التي تعبث بجسده، ولكنه يجد نفسه مصمِّماً على اجتياز هذه الفتحة إلى الخارج حيث ينصب الموت شراكه تحت قبة فضاء الحريَّة، فصوَّب قاذف الـ(آر-بي-جي) نحو الناقلة بثبات وأطلق القذيفة، مرَّ جزء من الثانية قبل أن تصبح الناقلة حلَّة شواء ضخمة تتصاعد منها أبخرة اللحم المحترق الذي تزكم رائحته الأنوف، وبدت أيادي الجنود وأشلاؤهم المتطايرة في الفراغ الملتهب للناقلة كلحم سلحفاة ضخمة يتطاير على السفود عصيًّا على الاحتراق والنضج، وقد اختلطت صرخات الأحياء منهم وصيحاتهم المنهارة بدوي المدافع التي تصم لها الآذان، فبدت صرخاتهم مكتومة كأنَّها لم تتجاوز حناجرهم، وقد حاول زياد التراجع وطلقات طائشة للمدافع الرشاشة تتساقط يمنة ويسرى وأمامه وخلفه كأنَّها تحاول أن تسدَّ مساره بشراسة، ومن بين تلك الطلقات الطائشة وجدت إحداهن طريقها إلى جسده ، فأحسَّ زياد باختراقها بطنه كإبرة ضخمة أحميت على نار مجمرة، فسقط على ظهره، حاول النهوض ففشل في ذلك، وقد هبَّ جهاد معرور لنجدته، وإذا بصلية من رشاش قريب تقطع الطريق عليه، وبدا واضحاً أنَّ زياداً قد سقط في يد العدو، وإذا بقذائف المورتر تنقذ الموقف وهي تنهال على الآليات العسكريَّة، وقد انتهز جهاد الفرصة، فحمل زياداً وأسرع به في داخل الفتحة تشيِّعه طلقات الرشاشات التي تتبعه في إصرار وعناد واضحين، وقد تسلَّل في إثرهما جندي من القوات الخاصة وهو يزحف على الأرض كأنكوندا متوسطة الحجم، ثم ألقى قنبلة يدويَّة عليهما قبل أن يلوذ بالفرار تحت غطاء من الأباتشي التي حلَّقت قريباً من المكان، ثم أقبلت عربة الإطفاء لتغرق المبنى بالمياه.

FOR AUTHOR USE ONLY

المصيدة

أرخى زياد جسده بين يدي جهاد معرور، والأخير يتحسس طريقه في الظلام بين بقايا الأنفاق المتهدِّمة، والتراب الناعم ينهال عليهما، وظلام النفق ورائحته الرطبة تصيبهما بالقلق والضجر، وما يقلق جهاد أكثر خوفه من إغماء زياد في هذا الوقت العصيب، مما يقلِّل من فرص نجاته، وهي فرص تكاد تكون منعدمة وقد انهارت منظومة الأنفاق في هذا الجزء أسفل حي الأشجعيَّة في وقت مازال فيه زياد ينزف بسخاء. مدَّده جهاد على الأرض، ثم شرع في تمزيق ثيابه للتأكد من موضع الإصابة، وقد وجد أنَّ المقذوف قد اخترق جسد زياد أسفل الكلية اليمنى وخرج من الاتجاه المقابل، وقد سلك المقذوف طريقاً يخشى أن يكون اختراقه ذا ضرر بالغ.

بدأ جهاد الضغط على موضع النزيف محاولاً إيقافه، بينما كان زياد موشكاً على الإغماء، وقد حاول جهاد إبقاءه واعياً ما أمكن حتى يتسنى لهما الحصول على نجدة وشيكة، هذا في وقت كان فيه المصباح الكهربائي يرسل وميضاً خافتاً متقطعاً كأنَّما طفل شقيٌّ يعبث بسلكه من الجانب الآخر، وذرات التراب الناعم تنهال عليهما بصورة منتظمة، وأرضية النفق الرطبة تلسع جسديهما، وجدرانه الخرسانية الباردة ترسل شحنات جنائزيَّة سالبة، وكلُّ هذه الأشياء تغري بالإغماء أكثر مما توحي بالوعي واليقظة، لذلك كانت مهمَّة جهاد–إبقاء زياد واعياً– مهَّمة شبه مستحيلة، ومحاطة بالفشل من كل اتجاه، ولكن مع ذلك لم يستسلم، لا شيء يمنعه من المحاولة، لذلك شرع في حكاية حادثة مماثلة حدثت له من قبل، وذلك حتى يتمكَّن من إلهائه وإبقائه يقظاً ريثما تتهيأ لهما نجدة قد تكون في طريقها إليهما الآن.

مازالت أتذكَّر ذلك اليوم كأنَّه أراه أمام عينيّ الآن، وفي صباح ذلك اليوم الخريفي في أوائل تشرين الثاني قبل حوالي نصف قرن من الآن، وقد اكتست الأرض بخضرة مريحة للعين امتدَّت على مدِّ البصر، والشمس ترسل أشعتها الذهبيَّة خلسة بين الغيوم الماطرة، فتنعكس على قطرات الماء العالقة بالهواء، فتبدو كحبات العرق المتلألئ على جبين الغادة المغناج، ورائحة العشب والأرض المبتلَّة بالمطر تتسرَّبان برفق وسلاسة إلى الصدور، فتنتعش النفوس ويزيد انشراحها. وقد كنت أتقافز مرحاً مع بني عمومتي وأصدقائي في طريقنا إلى الحقول لمساعدة أقربائنا في قطف الزيتون، ونحن نردِّد مع الأطفال في صوت عذب متناغم:

أمي راحت تسوق وأختي تخبز في الطابون

وستي عملتلي عجة قليتها بزيت الزيتون

FOR AUTHOR USE ONLY

قالت لي طعمي صحابك لاتنس ادفي حالك

قلتلها شكر كثير ع العجة وزيت الـ......

وإذا بهدير الطائرات من فوقنا يبتر انسياب الأغنية، والأطفال يحملقون في المروحيَّة وهي تلقي عليهم برزم من المنشورات، وقد تبعثرت المنشورات والأطفال يتخطَّفونها بعضهم من أيدي بعضهم الآخر، وقد كان مضمونها تحذيرهم من مقاومة جيش الاحتلال، وقد هرعت إلى حقل أبي، فهالني ما رأيت من مناظر بشعة مازالت مطبوعة على ذاكرتي، وقد ميَّزت بصعوبة جثث أبي وعمي وأخي الأكبر، وقد تناثرت جثثهم مع جثث أخرى بين أشجار الزيتون، وجداول صغيرة من الدماء الحارة تسقي الأشجار بسخاء، لقد عبَّروا عن وفائهم وارتباطهم بهذه الأرض أحياء وأمواتاً.

حينها شعرت بدوار عنيف يلهو برأسي بعنف، وبعيني تدوران وترتعشان بشدَّة، وشعور بالغثيان يغمر جسدي بالعرق الغزير، فأقاوم رغبة عارمة في الغثيان، فأفشل في التحكُّم في نفسي وأبخرة ذات رائحة نفَّاذة تتصاعد من بطني إلى فيّ، كأنَّ هنالك من يرفع معدتي من أسفلها ويضعها على مقربة من فيّ، فتخور قواي وأفرغ حمولة معدتي دفعة واحدة ثم أغيب عن الوعي.

وقد أفقت والشمس تنحدر بسرعة نحو الغروب، وإذا بجارنا أبو درويش الرجل الستيني يجلس على مقربة مني، وهو يرمقني بإشفاق وحنان ظاهرين، فبادله نظرة امتنان وشكر خالص، وقد استنتجت أنَّه هو من اعتنى بي خلال غيبوبتي، بل هو من حملني من الحقل ووصل به إلى هنا، وقد عجب من قدرة هذا الرجل وعزمه إذ استطاع أن يحملني في ذلك النهار الكارثي الذي لم يهدأ فيه صوت الرصاص، وهو يحصد الأرواح كلّ الأرواح حصاد الزيتون الباشلي. وقد أخبرني أبو درويش بالطريقة التي عثر بها عليَّ، وكيفيَّة وصوله إلى الحقل، وانحدرت دموع القهر والعجز من عيني أبي درويش، وبدا واضح التأثر وهو يخبرني بأنَّه قد أخرج من بيته كالآخرين استجابة للنداء عبر مكبِّرات الصوت، وقد اصطف هو وجيرانه في منتصف الطريق، وثلاثة من الجنود يصوبون بنادقهم الرشاشة عليهم، وطلبوا منهم أن يستديروا ويضعون أيديهم أعلى رؤوسهم فاعترض أبو معلول على ذلك، وإذا بالطلقات تجعل من جسده غربالاً ضخماً واسع الثقوب، ونوافير من الدماء الحارة ترش الوجوه في لوم واضح، وقد شعرنا بالخزي والعار لاستسلامنا، فبدونا كشياه وديعة أسلمت أنفسها لقصاب قاسي القلب يشحذ سكينه أمام أعينها، والتفتنا جميعاً وكأنَّ الفكرة طافت بعقولنا معاً، وانطلقنا نحوهم والرصاص ينهمر علينا فسقط منا أربعة، وجرح آخران قبل أن نتمكَّن منهم، وقد هرب أحد الجنود، وأمسكنا بالجنديين الآخرين، وقد ألقيت

FOR AUTHOR USE ONLY

بنفسي على أحدهما، وبدأت أهرس رأسه بحجر ضخم ولم أكفُّ عن ضربه حتى شعرت بالإعياء، وشعور لذيذ بالخدر يتسلَّل إلى عيني، وبهواء بارد رطب يتهادى في أحشائي، فجعلني ذلك أتفحص جسدي لأجد رصاصة اخترقته على مقربة من الكلية اليمنى، والدماء تغطي ثيابي، فتركت رأس الجندي كتلة غير متجانسة من اللحم المفروم على عجل، لا أدري كيف كنا سنستسلم لهذا الكائن البائس الضعيف؟ وهرع إليَّ غانم خليل وربطها لي بكوفيتي، وقد ربط كوفيته على قدمه، وصار كل منَّا في طريق بعد الوداع القصير، وكلنا يعلم أنَّه الوداع الأخير، وكان بإمكاننا أن نموت معاً ولكن تعلمنا من درس أبي معلول أن نقاوم ولا نستسلم مهما كان الوضع حرجاً، وبما أننا جريحان فعلينا أن لا نسهِّل لهم مهمَّة قتلنا معاً، عليهم أن يعانوا قليلاً في البحث عنَّا.

ولم يكد يصل إلى هذا الجزء من روايته حتى بدأت أنفاسه تتسارع، وصدره يعلو ويهبط بسرعة، فيغالبه التأثر ويتهدَّج صوته، وسعال حاد يشقُّ طريقه بصعوبة في صدره ذي الفقرات البارزة، فيضع رأسه على الترب، فوسَّدته فخذي، وبرودة جسده تكهرب جسمي، ووضعت يدي على صدره، وهو ينظر إلى عينيّ مباشرة، وعيناه تفصحان عمَّا عجز عن نطقه، وهي تحمل رسالة واحدة وواضحة: (لا تستسلم).

وضعت جثَّته خلف الشجرة، وهممت بأن أحفر له قبراً، ولم أدرِ كيف أفعل ذلك والليل قد حلَّ وأصوات الطلقات تتناهى إلى مسمعي من بعيد، بعدها له صوت صفير حاد، وبعضها له دويٌّ مكتوم. فتركته بعد تردُّد، وقد استشهد هو بينما عليَّ أن أواصل المسير، وتمنيت لو أنَّني مكانه، لا أدري ماذا أفعل بحياة لا اجتمع فيها بأبي وأخي وأصدقائي، ولكن وصيَّة أبي درويش تستحق التنفيذ، خاصَّة وهو من أنقذ حياتي واعتنى بي.

وهنا بدأ زياد يسعل سعالاً حادًّاً، والقصة قد وصلت إلى خواتيمها، ولا أصوت نجدة تسمع في النفق، ومازالت الأتربة الناعمة تنهال عليهما في حماس، وبدأت أنفاس زياد تتسارع، وهذا ما كان جهاد يخشاه، فلو لم يكن زياد مصاباً في أحشائه لعدَّ هذا التسارع في الأنفاس بسبب سوء تهوية النفق لانهيار فتحته من الخارج، بينما غمرت المياه بعض جوانبه، أمَّا وقد كان زياد مصاباً فإن هذا التسارع في الأنفاس لا يبشِّر بخير البتة، وعلى بصيص من الضوء الخافت أبصر جهاد بريق انتصار ورضا في عيني زياد، وهو يحاول أن يفتح فاه ليقول شيئاً ما، ولم يتحمَّس جهاد لهذه المحاولة؛ لأنَّه يعلم تماماً أنَّ أيَّ مجهود يبذله زياد سيعجِّل برحيله، حتى ولو كان هذا الجهد مجرَّد حديث، كما يعلم أيضاً أنَّه لا أحد يمنع

FOR AUTHOR USE ONLY

زياد عن فعل شيء إن أراد فعله، وهاهو يبصر في عينيه حماس وإصرارٍ واضحين، لذلك كفَّ عن محاولة منعه من الكلام، فاسترسل زياد في حكايته، وهو يذكِّر جهاد معرور بيوم تنفيذ الإعدام على إياد أخيه، فيجفل جهاد لسماع هذا، ويتغيَّر وجهه، ولو كانت الإضاءة كافية وزياد مهتماً بالنظر في وجه جهاد لأبصر وجهه ممتقعاً متغيِّر السحنة، لأنَّه لا يرغب في سماع قصة شهد أحداثها المؤلمة بنفسه، لكم كان يتمنى أن يعتذر زياد عن عمله في تنفيذ حكم الإعدام على أخيه، وعلى الرغم من أنَّ هذه الخطوة نالت رضى بعضهم إلا أنَّها صوحبت باستهجان كثير من العالمين بالأمر، فلو اعتذر حينذاك لوجدوا له العذر، ولما عدَّ ذلك ضعفاً منه، ولكن لا أحد يستطيع إثناء هذه الكتلة الصلبة من المبادئ عن طريقها القويم، كما لا يستطيع جهاد منعه الآن من الاسترسال في تلك القصة بدء من الليلة التي سبقت الإعدام.

حاولت أن أزوره في تلك الليلة، ولكنني تردَّدت في آخر لحظة، وعدلت عن قراري على بُعْد خطوات من زنزانته، وقد خشيت أن أضعف فأتعاطف معه، أو أن أتهوَّر فأقضي عليه بيديّ، لم أشعر بضيق وحنق في حياتي من قبل كذاك الحنق والضيق اللذان أحسست بهما في تلك الليلة، ومازال الإحساس بالذنب ينقِّص حياتي حتى الآن، وذلك ممَّا حدث في ذلك النهار، لحظة إطلاق النار عليه، وبينما أصوِّب بندقيتي على موضع قلبه تماماً، وأنا أمرر نظري عبر الفريضة، أبصرت حينذاك فؤاد إياد ينبض بعنف على الرغم من أنَّ المساحة كانت لا تسمح لي برؤية ذلك بوضوح، كما لاحظت أيضاً شيئاً ما يتكوَّر في موضع القلب، ويبدو بروزه واضحاً دون تدقيق، كأنَّما قلبه في طريقه إلى الخروج من صدره، حتى حسبت أنَّني أتوهَّم ذلك ولا أراه حقاً، ولكن ما رأيته بعد ذلك فاق أعقد خيالاتي، وقد بدأ التكوُّر ينقشع عن قلب دامٍ أشبه بزهرة أرجوانيَّة متهرئة متهدِّلة الجوانب ذات حوافٍ وعمق بنيّ اللون، ثم تدلَّى القلب قليلاً إلى الأسفل وخيوط بيضاء دقيقة تتصل به ويتأرجح عليها كلعبة(يويو)في يد طفل يمتلك تلك اللعبة لأوَّل مرة، وحينها قلت لنفسي لو أنَّ هذه الخيوط هي التي تمنعه من السقوط على الأرض– لا أظنَّها ستصمد طويلاً قبل أن تتخلى عنه وعن شيء منها، ولكن بدأت تلك الخيوط تزداد سمكاً يتناسب طرديًّا مع ذلك النمو السريع الذي طرأ عليه، وقد نما بسرعة من أطرافه والدماء اللزجة تتقاطر من حوافه، فهالني ما رأيت فأغلقت عينيّ، وارتخت يداي، وانتبهت لأفتح عينيّ على تحوُّل ذلك القلب إلى كائن بحجم إنسان معتدل القامة، وكان أقرب منه إلى المسخ من الإنسان، بل هو كائن من اللحم المتهرئ ذات ملامح بشريَّة لو أردنا الدقَّة، ودقَّقت في تفحص ملامح ذلك الكائن، وفي أعماقي دفء غريب يشي بعلاقة ما أو بمعرفة سابقة لي بهذا الكائن.

FOR AUTHOR USE ONLY

لم يستمر جهاد معرور في الإنصات للقصة، لأنَّه كان مشغولاً بما هو أهمّ، وقد ألصق أذنه بأرضية النفق وهو يتحقَّق من دبيب أقدام في موضع ما من شبكة الأنفاق، ثوانٍ معدودات وتأكَّد من أنَّ وقع الأقدام مقبل نحوهما، وهنا لم يتمالك نفسه من الفرح، وإذا به يرفع رأسه بسرعة من وقع الانفعال، فيصطدم بسقف النفق المتهالك، فتنهال ذراته الناعمة عليهما مجدَّداً، وقد وجد التراب الناعم سبيله إلى جرح وفم زياد، فأحسَّ ببرودته على موضع الجرح، وسعل سعلاً حاداً لإحساسه بالاختناق، ولكن ذلك لم يثنه عن الاستمرار في سرد قصّته حتى النهاية.

ليكمل: ثم تملَّكني إحساس بأنني أعرف هذا الشخص، لا أدري أين رأيته من قبل، ولكن ما أعرفه حقًّا لو أنَّ هذه الملامح أوضح قليلاً عمَّا هي عليه الآن، أو أنَّ المسافة أقرب من هذه – لتعرَّفت عليه بكلِّ سهولة، ولم يكد هذا الكائن يفتح فاه بكلمة حتى تيقَّنت من أنَّني كنت محقًّاً في كلِّ ما أحسست به تجاهه، وبدت غشاوة الجهل به تنقشع عن عينيّ، ونور المعرفة به يتجلَّى في بصيرتي، وصوته العميق الدافئ يتردد في ردهات قلبي، لأوَّل مرة في حياتي أستخدم للسمع حاسة أخرى غير الأذن، لقد كنت أسمع صوته بل صوتها بوضوح لو تحرَّينا الدقَّة، لقد كنت أسمع صوت أمي أم جمال بقلبي لا بأذنيّ، وهي تتوسَّل إليَّ بأن لا أطلق النار عليه، فهو ميِّت لا محالة، وقد نال عقابه، إن كان لا بدّ من قتله فليكن على يد شخص آخر، وحينها حاولت أن أعترض وأشرح وجهة نظري في الأمر، لم أتسامح يوماً قط مع خائن، فلا يمكنني خرق هذا المبدأ الآن، وخاصَّة عندما يكون هذا الخائن أخي وشقيقي، فأنا أولى بغسل عاره من غيري.

وهنا تهجَّد صوته وتسارعت أنفاسه، لا يدري جهاد إن كان هذا التهجد في الصوت والتسارع في الأنفاس بسبب الإصابة في البطن والوجود في هذا النفق السيء التهوية، أم كان بسبب الانفعال الذي طغى على جسد زياد بسبب هذه القصَّة المؤثِّرة، ولكن ما يعلمه حقًّا أنَّ حالته تتدهور كأنَّما موته في سباق محموم مع النجدة التي يسمع وقع أقدامها تقترب، يخشى جهاد أن تصل هذه النجدة متأخرة قليلاً عن الوقت الافتراضي للحاجة إلى وصولها.

ولم تكن النجدة ولا اقترابها أمر يهمُّ زياد كاهتمامه بالمتابعة في سرد القصة، ليتابع: هذا ما أؤمن به وما كنت أريد أن أوضحه لأم جمال، ولكن انعقد لساني، وفي أعماقي تبلور إحساس بالتعاطف معه، وذلك لأوَّل مرة في حياتي ، وتمنيت لوَّ أنَّ هذا حدث مع شخص آخر، يبدو أنَّ إيماني بالمبادئ لم يُختبَر من قبل، وهاأنذا أفشل في أوَّل امتحان حقيقيٍّ، هنا وجدت نفسي مشتَّت الذهن مضطرب الفؤاد، لا

FOR AUTHOR USE ONLY

أدري ماذا أصنع، فأغمضت عينيّ والدوار يعبث برأسي، فيبادله سائر جسدي الشعور نفسه، وبأصبع خائر ضغطت على الزناد، وأنا أمنّي نفسي أن تطيش رصاصاتي، ولكن يبدو أنَّ الخبرة قد حسمت الأمر ضد أمنياتي، لوهلة بدا زياد شامخاً غير عابئ بالرصاص المنهمر عليه، وقد صار شبح أم جمال يتلقَّى تلك الرصاصات بدلاً منه، يبدو أنَّ بعضها قد وجد طريقه إلى قلب زياد، وكل رصاصة اخترقت قلبه كنت أشعر بوقعها على قلبي أولاً قبل أن تخترق قلبه، وإذا بشبح أم جمال يتلوَّى كملاءة حمراء، تتلاعب الريح بأطرافها، ثم أسمع لها فرقعة حادة، ليتحوَّل بعدها لونها إلى لون فضي يخلب الأنظار، ثم تطير هذا الملاءة لتسقط على وجهي، فأحسست برائحة أم جمال التي لم تفارق أنفي قط، وبراحتها الناعمة الحنونة تمسح على عيني، فتخمد نيرانهما، فأسلمت نفسي لها وهي تغطي جسدي كله، وتنحدر بي على سطح جدول صافي المياه، تنساب مياه الباردة بنعومة وسلاسة، وأمامي بساط يتمايل على سطح الجدول وعليه راكب يلوِّح لي بيده، وابتسامته المشرقة تدعوني للانجذاب إليه وأنا أحاول اللحاق به.

ارتفع منسوب المياه في النفق، وجهاد يجاهد في المضي قدماً وهو يحمل رفيقه، والتراب ينهال عليهما بسرعة هائلة، وقد أظلم النفق وأطفئ نوره على نحو مفاجئ، وأطفئت معه آخرة جذوة أمل كان جهاد حريصاً على بقائها متقدة، فبدأت قواه تخور، وقد صار جسد زياد أثقل قليلاً عمَّا كان عليه من قبل، وكما صارت أطرافه تتصلَّب بسرعة، وتحت ثقل جسد زياد وبرودته اللاسعة بدأ قدمي جهاد تتخبطان حتى تعثر على بروز ناتئ في النفق لم يره جهاد في الظلام، فاصطدم به، وقد أطاح بجسد زياد بعيداً عنه بينما سقط هو على مقربة من البروز ورأسه ينزف بشدة، وصداع رهيب كبرق يرسم تعرجاته على رأسه، حاول أن يقاوم الدوار قليلاً، ثم استسلم له، والمياه تحمل جسده إلى سقف النفق لتلتقي يده بيد صديقه زياد، ثم يتهادى جسداهما على سطح الماء كأنَّهما يمارسان رياضتهما المفضَّلة (السباحة).

FOR AUTHOR USE ONLY

الصفقة (١)

ارتفع صرير باب في موضع ما من نفق دائري أسفل أرض القطاع، فدخل من الباب رجلان تبدو عليهما دلائل الشدة والغلظة على الرغم من تغطية وجهيهما بالكامل، فصار يرمقهما بخوف مشوب بالفضول والترقب الحذر، لم يكن يحلم في أسوء كوابيسه أن يقضي ثوان معدودة في معية رجلين شرسين كهذين، والأسوأ أن يكون تحت رحمتهما وطوع أيديهما يحركانه كيف يشاءان، ويفعلان فيه وبه ما يشاءان. ربط أحد الرجلين العصابة على عيني ، بينما قيد الآخر معصميه، وألصق الشريط اللاصق على فيه بخفة ومهارة واضحة، وقد فهم أن وقت الرحيل قد أزف، ولكنه لا يدري إلى أين، فقد صارت حركة انتقالاته من موضع إلى آخر متقاربة في الآونة الأخيرة، يبدو أن رفقاءه على مقربة منه في مكان ما هنالك، قدح هذا الخاطر فتيل الأمل في قلب للحظة، سرعان ما خفت ضوءه فكأنما كان ومضة خاطفة، ذلك وقد تذكر أنه ما من أسير قد وقع في يد حماس فاستطاعت أي قوة على وجه الأرض استخلاصه منها عنوة واقتداراً، وحتى في عمليات التحرير النادرة فإنها كانت تنتهي بمقتل الأسير وآسريه، لكم يتمنى أن يكون الاستثناء الأول من تلك القاعدة، فيتم تحريره بسلام، انحدرت دموعه تحت العصابة، وصحبتها تنهيدة حارة، كانت سبباً كافياً لتلقي دفعة قوية من الرجلين، وكانت من القوة بمكان إذ جعلت جسده يتأرجح بشدة، أرجحة انتشلته من بين تلك والوساوس والخواطر التي انتابته لبرهة قصيرة، فعاد كما كان طيعاً هيناً ليناً في أيديهما، هذا على الرغم من أنه لا يشعر بارتياح لوجوده بين أيدي هذين الرجلين القاسيين، واللذين يذكرانه بانطباعات سيئة عن آسريه وليلة أسره، وهي انطباعات بدأ في التراجع عنها رويداً رويداً مع كمية ونوعية الطعام الجيد الذي كان يقدم له، هذا بالإضافة إلى السماح له بالرياضة وحلاقة الشعر أحيانا، يبدو أن الحياة في داخل الأنفاق ليست بذلك السوء الذي يصورونها بها هنالك، والآن قد آن لتلك الانطباعات السيئة أن تستعيد مركزها المتقدم في قلبه وهذان الرجلان يدفعانه إلى السيارة بعنف.

انطلقت بهم السيارة بسرعة، ولم يستطع أن يحدد الوقت بدقة ولكنه يستطيع أن يخمن بأنه قبيل الفجر بقليل مع أصوات الديكة التي تتباهى إلى سمعه، ولأول مرة منذ خمس سنوات يستنشق نسيم الصباح، فملئ منه رئتيه بحرص وإتقان، لا يدري متى يمكن أن تتاح له فرصة كهذه مرة أخرى. وقد لا حظ طول الرحلة، لا بد إن هذين الرجلين يتوهان أحداً ما يتعقبهما، ولا يريدان التوجه إلى وجهتهما الحقيقية قبل التأكد من عدم مراقبتهما، ويسمع أصوات سيارات تتخطاهم مسرعة على طول مسيرهم في الطريق، لا يمكن أن تتجه كل هذه السيارات إلى الوجهة نفسها مصادفة، هذا ما لم يكن الأمر مجرد سباق للسيارات، ومع كل هذه التخمينات والخواطر المتسارعة لم يلاحظ أن الرجل قد رفع العصابة عن عينيه حتى لحظة إغماضهما غريزياً بسبب تعرضهما للضوء بصورة مفاجئة، وما أن فتحهما ببطء حتى أبصر منظراً هزه وجعله يجهش بالبكاء، لم يصدق أنه الآن هنا في معبر رفح على مقربة من الجانب

FOR AUTHOR USE ONLY

المصري، الآن شمس الحرية تشرق من سيناء، وقد ترجل من السيارة بصحبة حارسيه وقد هاله موكب السيارات المتشابهة في النوع واللون، والتي قدمت إلى المعبر في نفس الوقت، حتى حراس تلك السيارات على نسق واحد من التشابه في الحجم والزي، يبدو أن حماس تؤدي جميع أعمالها بالحماس والإتقان اللازمين، وقد دخله شيء من الشعور بالفخر لكونه جزء أصيلا في هذا العرض المهاري المتقن.

استقبله مندوب الصليب الأحمر على الجانب المصري من المعبر، وألقى عليه بعد الأسئلة تتعلق بالتأكد منه، وأجريت له بعض الفحوصات الطبية للتأكد من سلامته صحيا، كما حظي باستقبال حار من مندوب رئيس الوزراء، والذي تأكد بنفسه من أنه هو الأسير المعني، ولا وجود لخداع في الأمر، بإمكانهم الآن تنفيذ ما يليهم من الصفقة.

ثم حلقت بهم المروحية متجهة إلى قاعدة تل نوف الجوية، وبهبوطها على المدرج– وانقشاع طبقة الغبار الذي أثارته بمروحتها العملاقة– أبصر حشداً من المسئولين ذوي المناصب الرفيعة في انتظاره، ومن بين أولئك المنتظرين كان ثمة شخص ما واضحاً وضوحاً طاغياً في وسطهم، لقد كان ذلك الشخص هو الوحيد الذي تربطه به علاقة أزلية مباشرة، لقد كانت تلك أمه، والتي صارت ترتعش من وطأة الفرح وشدَّة الانفعال، هرول إليها، ثم احتضنها بقوة تتناسب مع هذه الروح العطشى للقائه، فانخرطا في نحيب حار كان أبلغ ترحيباً من كل عبارات الترحيب والحفاوة بكل اللغات البشرية، فشهقت عدة شهقات مزلزلة، ومع كل شهقة منها يتساقط عناء سنة من سنوات الأسر والحرمان، ثم انتزعه بعض الحضور من ذلك العناق الحار مذكراً إياه بطابور المنتظرين لمصافحته وعناقه أيضاً، فبدأ في مصافحة الطابور، وكم كان مفاجئ له أن يكون رئيس الوزراء نفسه على مقدمة الطابور، كانت تلك اللحظة من اللحظات النادرة التي يشعر فيها بالفخر، يبدو أنه قد أصبح بطلاً قومياً، وهو الذي اعتقد أنه قد طوته صحيفة النسيان، ثم أدخل إحدى الغرف الجانبية في القاعدة، وخلع عنه الثياب المدنية، لقد حان الوقت لارتداء زيه الرسمي، وقد أحس بشيء من الانقباض النفسي وهو يرتديه في تراخ وتردد.

FOR AUTHOR USE ONLY

الصفقة (٢)

اقتحم الجنود القسم (ج) من سجن ريمون، وصاح أحدهم بأن من يسمع رقمه عليه بلف برشه وأغراضه والتهيؤ للخروج من القسم، فاشرأبت الأعناق وأرهفت الآذان لسماع الأرقام المذاعة، الكل يتمنى أن يسمع إذاعة رقمه الآن، فهذا الوضع الحالي من العروض المسرحية القليلة التي يشعر فيها الأسرى بالمتعة والإثارة، لأنها في الغالب تنتهي بأحد أمرين: أحدهما: النقل لسجن آخر، وهذا مما يتيح فرصة لكسر حاجز الرتابة والملل الذي ينتاب الأسير من جراء وجوده مع عدد محدود من البشر في رقعة جغرافية ضيقة لفترة زمنية طويلة، وأما الآخر: فهو الخروج من السجن نهائيا، واستعادة حريته مجدداً. لذلك بدا الكل هنا مترقباً ماعدا واحداً هو شيخ الأسرى، كما بدا الجندي مستمتعاً بذلك، وهو يضغط على الحروف وكأنه يقوم بتذوقها فعلاً قبل النطق بها، وهاهو ينطق بالرقم(٣١١٣)، ليقفز نبيل الدباغ فرحاً، وهو يودع رفقائه بيد، ويجمع أغراضه بأخرى، ومن ثم أدخل غرفة الزيارة ليجد بعض الأسرى من الأقسام الأخرى من السجن قد سبقوه إلى الغرفة، حيث تم تفتيشهم بدقة، وطلب منهم تسليم ملابس السجن، وارتدوا الملابس خاصتهم، الآن تيقن من صدق شيخ الأسرى عندما أسر له قبل شهر بأنه سيكون حراً طليقاً في القريب العاجل، وطالبه بكتمان الأمر حتى يحين الوقت المناسب لذلك، لم يهتم بالأمر في حينه وعده نوعاً من المزاح، أو حيلة من حيل الشيخ لرفع روحه المعنوية، والتي كانت في الحضيض آنذاك، ثم قص عليه التفاصيل لاحقا، وذلك عند استدعائه إلى مكتب المأمور، حيث سئل عن رأيه في المنفى لو تم إطلاق سراحه يوما ما، وقد أدرك شيخ الأسرى بخبرته بالسجن وأسراره أن ثمة صفقة لتبادل الأسرى تلوح في الأفق، وأن اسمه على قائمة الأسرى المقترح الإفراج عنهم، ولكنه غير متفائل بذلك، وقد أصيب بخيبة أمل في صفقة سابقة، وقد كاد وجود اسمه فيها أن ينسف الصفقة من أساسها، حيث تشبث رفاقه بضرورة أن تشمله الصفقة بينما تمسك الإسرائيليون بعدم إطلاق سراحه حتى لو تم إلغاء الصفقة، وفي النهاية وافق رفقاؤه على إتمام الصفقة من دونه على مضض، ولم يلمهم على ذلك فقد فعلوا ما في وسعهم، ولكن تعنت الإسرائيليين حال دون ذلك، وإن كان يتمنى من أعماق قلبه أن يخرج من هذا القبر المظلم ولو ليوم واحد، والآن يجد اسمه مطروحا بقوة، لابد من أنَّ ظروف التفاوض الآن في صالح حماس، وهذا أمر لن يشكك فيه أحد ولكن خبرته بهؤلاء الإسرائيليين تجعله متحفظاً من الإسراف في التفاؤل، فهم لن يطلقوا سراحه مهما كلفه الأمر، لذلك لديه خطة بديلة لتمرير إرادته عليهم دون أن يشعروا، ففي حال تعنتوا في الإفراج عنه سيقترح أن يكون الإفراج عن بدلا منه، وبالفعل حدث ما توقعه بالفعل، وتيقن الآن من صدقه ومن كونه قد صار خبيراً في الشأن الإسرائيلي، فهاهم الآن يسلمونه كيساً مكتوبا عليه رقمه ، وبداخله أغراضه التي كانت معه لحظة اعتقاله، فهذا بنطلونه الجينز الأزرق، وهذا القميص السماوي الذي بهت لونه قليلا، وهذه فرشاة أسنانه البيضاء، لا يدري ما لذي أتى بها إلى هنا، ما هذه الورقة القديمة؟ فتحها، ووجد مكتوباً عليها بقلم

FOR AUTHOR USE ONLY

رصاص قائمة بأشياء هي: سمك، لحم ضأن مفروم، بصل، بقدونس، كنافة. لقد تذكر هذه القائمة، لقد كانت طلبات زوجه أعطته إياها فجر القبض عليها. أحس بانقباض في صدره، ودمعت عيناه لتلك الذكرى الحزينة للمرحومة زوجه.

أخرجه زعيق الجنود من ذلك العالم الذي كان يسبح فيه بخياله، وقد قيدوا أيديهم خلف ظهورهم، وحملت أيديهم المكبلة أمتعتهم، وهم يدفعونهم إلى (البوسطة) عربة نقل السجناء، ثم انضموا لبقية الأسرى المفرج عنهم من السجون الأخرى، لتقلهم الحافلات إلى معبر كرم أبي سالم، ومنه إلى الجانب المصري، ثم الدخول إلى قطاع غزة عبر معبر رفح.

FOR AUTHOR USE ONLY

العودة

انتصف النهار أو كاد، وهاهي شمس يوليو الحارة تلهب أجساد البشر بأنفاسها الملتهبة، فتسوق الناس إلى ملاذاتهم الباردة برعونة وعنف، بينما تبكي كل خلية من خلايا أجسادهم على طريقتها الخاصة، وتعبق رائحة العرق بالجو فيصر لزجاً مفعماً بالرطوبة، يبدو أنَّ الغلاف الجوي هنا يمارس دوره بكفاءة منقطعة النظير، من الصعب أن تفلت منه قطرة ماء إلى الفضاء الخارجي. ثمة طفلين يقرعان باب بيت في أطراف القطاع بقوة تتناسب مع جسديهما الصغيرين، تفتح الباب امرأة نحيلة في العشرينيات من العمر، وقد بدت مضيئة ومتهللة الأسارير على الرغم من الطقس الحار الذي يعكر المزاج، ثم احتضنت أحد الطفلين بكل حب وحنان، بينما وقف الآخر على مسافة مناسبة في انتظار أن يأتي دوره في هذا الحضن الحنون، وقد أخذ العناق وقتاً أطول مما ينبغي، ضارباً عرض الحائط بكل القواعد، فهنالك طفل آخر في الانتظار، والجو حار، والبيت ظليل وبارد، يبدو أن المرأة قد تناست كل ذلك إذ تطيل عناق وتقبيل الطفل الأول، ثم قامت بإيواء الطفل المحظوظ وهي تغلق الباب دون الآخر، والذي فغر فاه في ذهول وغضب، ليقرع الباب بكل عنف من جديد،ولا أحد يستجيب، وخيل إليه أنه سمع أنيناً مكتوماً من خلف الباب، ثم تناهى إلى أذنيه صوت جهوري يألفه ويطرب لسماعه وهو يناديه: زياد.

التفت ليجد أبيه على بعد أمتار منه وهو يفرد يديه ليحتضنه، وبكل ما أوتي من سرعة وشوق ولهفة سعى إليه، ودفن جسده الصغير في حضنه، وهو يبكي وينتفض بعنف.

اهتز سرير العناية المركزة بعنف في مستشفى غزة، فسقط المريض على الأرض، وقد سرت قوة خفيَّة في جسد المريض ففتح عينيه ببطء، ثم انتزع الخراطيم الموصولة بجسده من كل اتجاه، وهو يفرك عينيه الناعستين، ليتأكد من أنه قد استيقظ من هذا الحلم. وتأمل المريض الشخص الجالس على الأرض بجواره، وهو يتحسس جسده في لهفة وشوق. لم يصدق زياد عيناه في أن الجالس إلى جواره هو أبيه نبيل الدباغ بشحمه ولحمه، ثم انخرط الأب وابنه في عناق ونحيب حار، ثم خرج الرجلان يتوكأ كل منهما على الآخر ليخرجان من بوابة المستشفى، حيث السرادق التي نصبتها حماس للاحتفال بالأسير المحرر نبيل الدباغ والذي رفض أقامته وظل مرابطاً على رأس ابنه في المستشفى، والآن يجد لذة وانشراحاً وهو يستنشق نسيم الحرية ويملأ من رئتيه، وصوت الشاعر زهير الزيتوني يشنف سماعه ويزيده حماسة وشباباً وهو يقول:

لو تبقت في يدي رابين قطةْ..

لا تساومْ..

أو تبقت في عروق الدم قطرةْ..

لا تسالمْ..

FOR AUTHOR USE ONLY

ولو تبقت من فروض الموت سقطةْ
فلتقاومْ..
لا تحول نحو أوسلو يا صديقي..
وتوقفْ..
إن هذا الحق نقطة.
كم مشينا خلف أوسلو يا صديقي..
فبكينا..
ربع قرن أو يزيدْ..
كل يوم نحلم بالفجر الجديدْ..
ليت أنا ما حلمنا..
بأمان خلَّب حتى هرمنا..
هل جفَّ حلقك يا صديقي؟
لست مثلي!
لا عليكْ
من سراب قد نهلنا فارتوينا..
فلتدقق يا صديقي..
هل ترى خلف السراب..
سالم عمي..
تتقاذفه المنافي..
هل يعود؟
خذها مني يا صديقي: لن يعودْ..
إن أوسلو لا ترحبْ..
رمَّ جرحها بالصديدْ..
فلتدقق يا صديقي من جديد..
بين ذرات السراب..
وستبصرْ..
ذاك مروان ابن عمي..
خلف قضبان الحديدْ..
لم نخنهْ..

FOR AUTHOR USE ONLY

تلك أوسلو يا صديقي..
ومروان كما تعلم عنيد..
قد قسوت يا صديقي
هل ستصبر؟
ولأجلي ستحدق في السراب..
وتكرْ؟
هل ترى وطناً عزيزاً؟
أم فخاراً يتكسرْ؟
هل زرعنا فحصدنا؟
نحن بعنا يا صديقي..
هل ربحنا؟
ما ربحنا..
لا تقل غزةْ .. أريحا..
فلتكن غزة بغزةْ..
ولترحني من أريحا..
ما أرحنا.. ولا استرحنا..
تلك أوسلو..
كانت ولا زالت سقطةْ..
فلتقاومْ..
ولو تبقت في يدي رابين قطةْ
لا تساومْ..
لا تحول نحو أوسلو يا صديقي
وتوقفْ..
إن هذا الحق نقطةْ.

FOR AUTHOR USE ONLY

FOR AUTHOR USE ONLY

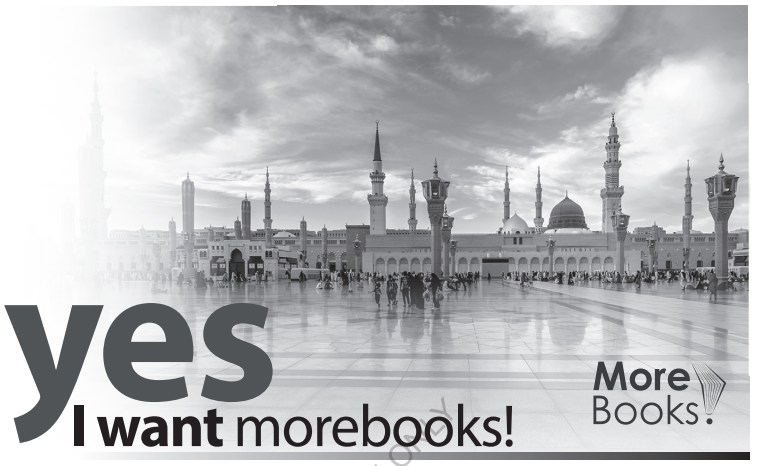

Buy your books fast and straightforward online - at one of world's fastest growing online book stores! Environmentally sound due to Print-on-Demand technologies.

Buy your books online at
www.morebooks.shop

FOR AUTHOR USE ONLY

Kaufen Sie Ihre Bücher schnell und unkompliziert online – auf einer der am schnellsten wachsenden Buchhandelsplattformen weltweit! Dank Print-On-Demand umwelt- und ressourcenschonend produzi ert.

Bücher schneller online kaufen
www.morebooks.shop

info@omniscriptum.com
www.omniscriptum.com

OMNIScriptum

FOR AUTHOR USE ONLY

FOR AUTHOR USE ONLY

FOR AUTHOR USE ONLY

FOR AUTHOR USE ONLY